الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
ISLAMIC UNIVERSITY OF MADINAH

مجلة الجامعة الإسلامية

للغة العربية وآدابها

مجلة علمية دورية محكمة

العدد : ١١ | الجزء : ١ | السنة : ٤ | مايو - أغسطس ٢٠٢١ م | رمضان - ذو الحجة ١٤٤٢هـ

١٣٨١
١٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

معلومات الإيداع

في مكتبة الملك فهد الوطنية

النسخة الورقية:

رقم الإيداع ١٤٣٩/٨٧٣٩ بتاريخ ١٤٣٩/٠٩/١٧ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٧٩١x

النسخة الإلكترونية:

رقم الإيداع ١٤٣٩/٨٧٤٠ بتاريخ ١٤٣٩/٠٩/١٧ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٧٩٢٨

الموقع الإلكتروني للمجلة

http: //journals. iu. edu. sa/ALS/index. html

ترسل البحوث باسم رئيس تحرير المجلة إلى البريد الإلكتروني:

asj4iu@iu. edu. sa

البحوث المنشورة في المجلّة تعبّر عن آراء الباحثين

ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

جميع حقوق الطّبع محفوظة للجامعة الإسلامية

هيئة التحرير

د. عبدالرحمن بن دخيل ربّه المطرّفي
(رئيس التحرير)
أستاذ الأدب والنقد المشارك بالجامعة الإسلامية

د. إبراهيم بن صالح العوفي
(مدير التحرير)
أستاذ النّحو والصّرف المشارك بالجامعة الإسلامية

أ.د. عبدالعزيز بن سالم الصاعدي
أستاذ النّحو والصّرف بالجامعة الإسلامية

د. إبراهيم بن محمّد علي العوفي
أستاذ اللغويّات المشارك بمعهد تعليم اللغة العربيّة بالجامعة الإسلاميّة

د. مبارك بن شتيوي الحبيشي
أستاذ البلاغة المشارك بالجامعة الإسلامية

أ.د. محمّد بن صالح الشّنطي
أستاذ الأدب والنّقد بجامعة جدارا-الأردن

أ.د. علاء محمد رأفت السيّد
أستاذ النّحو والصّرف والعروض-جامعة القاهرة

أ.د. عبدالله بن عويقل السّلمي
أستاذ النّحو والصّرف-جامعة الملك عبدالعزيز بجدّة

***

قسم النشر: **عمر بن حسن العبدلي**

الهيئة الاستشارية

أ.د. محمّد بن يعقوب التركستاني
أستاذ أصول اللغة بالجامعة الإسلاميّة

أ.د. محمّد محمّد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

أ.د. تركي بن سهو العتيبي
أستاذ النّحو والصرف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة

أ.د. عبدالرزّاق بن فرّاج الصاعدي
أستاذ اللغويات بالجامعة الإسلامية

أ.د. سالم بن سليمان الخمّاش
أستاذ اللغويات في جامعة الملك عبدالعزيز

أ.د. محمّد بن مريسي الحارثي
أستاذ الأدب والنقد في جامعة أمّ القرى

أ.د. ناصر بن سعد الرشيد
أستاذ الأدب والنّقد بجامعة الملك سعود

أ.د. صالح بن الهادي رمضان
أستاذ الأدب والنقد ـــ تونس

أ.د. فايز فلاح القيسي
أستاذ الأدب الأندلسي في جامعة الإمارات العربية المتّحدة

أ.د. عمر الصدّيق عبدالله
أستاذ التربية وتعليم اللغات بجامعة أفريقيا العالمية-الخرطوم

د. سليمان بن محمّد العيدي
وكيل وزارة الإعلام سابقاً

قواعد النشر في المجلة(*)

- أن يكون البحث جديداً؛ لم يسبق نشره.
- أن يتّسم بالأصالة والجدّة والابتكار والإضافة للمعرفة.
- أن لا يكون مستلاً من بحوثٍ سبق نشرها للباحث.
- أن تراعى فيه قواعد البحث العلميّ الأصيل، ومنهجيّته.
- أن يشتمل البحث على:

- عنوان البحث باللغة العربية وباللغة الإنجليزية.
- مستخلص للبحث لا يتجاوز (٢٥٠) كلمة؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.
- كلمات مفتاحيّة لا تتجاوز (٦) كلمات؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.
- مقدّمة.
- صلب البحث.
- خاتمة تتضمّن النّتائج والتّوصيات.
- ثبت المصادر والمراجع باللغة العربية.
- رومنة المصادر العربية بالحروف اللاتينية في قائمة مستقلة.

- في حال (نشر البحث ورقياً) يمنح الباحث نسخة مجانية واحدة من عدد المجلة الذي نُشر بحثُه فيه، و (١٠) مستلات من بحثه.
- في حال اعتماد نشر البحث تؤول حقوق نشره كافة للمجلة، ولها أن تعيد نشره ورقيّاً أو إلكترونيّاً، ويحقّ لها إدراجه في قواعد البيانات المحلّيّة والعالمية – بمقابل أو بدون مقابل – وذلك دون حاجة لإذن الباحث.
- لا يحقّ للباحث إعادة نشر بحثه المقبول للنّشر في المجلّة – في أي وعاء من أوعية النّشر – إلاّ بعد إذن كتابي من رئيس هيئة تحرير المجلة.
- نمط التوثيق المعتمد في المجلة هو نمط (شيكاغو).

(*) يرجع في تفصيل هذه القواعد العامة إلى الموقع الإلكتروني للمجلة: http: //journals. iu. edu. sa/ALS/index. html

محتويات العدد

م	البحث	الصفحة
١)	**محمّد يعقوب التُّركِستانيّ آراؤه وجهوده في خدمة العربيّة** د. محمّد بن حبيب التّرجميّ	٩
٢)	**الألفاظ اللغوية المسؤول عنها في الحديث النبوي دراسة في الظاهرة وأسبابها** د. أنس بن محمود فجّال	٥٩
٣)	**الرَّوحة في الضّاد والظّاء (حرف الهاء) لمحمّد بن الحسن بن محمّد الجَرْباذَقانيّ (ت : بعد ٣٧٤هـ -دراسةً وتحقيقًا** د. عبدالمجيد بن عثمان اليتيمي	١٢١
٤)	**أَلفَاظُ جَنُوبِ الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ في مُعْجَمِ (المُنَجَّدِ) لكُرَاعِ النَّمَلِ (ت : ٣١٠هـ) جمعًا ودراسة** عبد الرحمن بن عيسى بن علي الحازمي	٢٠٣
٥)	**اسم الصّوت - دراسة وصفيّة** د. نصّار بن محمّد حميد الدّين	٢٣٩
٦)	**الدلالة النحويّة لاستعمال الفعل (بغى) ومشتقاته في القرآن الكريم** د. نهلة عبد العزيز الشقران	٢٦٥

م	البحث	الصفحة
٧)	**اللغة الدعائية لدى شركات الاتصالات السعودية دراسة وصفية تحليلية** د. عبدالرحمن عثمان محمد اليتيمي	٣١١
٨)	**أحمد محمد جمال وديوانه (الطلائع): ذاكرة الشعر والغياب** د. صالح بن عبد العزيز المحمود	٣٦٧
٩)	**الحريري ومقاماته في المدونة التاريخية (معجم الأدباء نموذجاً)** د. أحمد سعيد الغامدي	٤٢٣
١٠)	**وظائف الوصف العجائبي في الرحلة العربية الأولى إلى البرازيل "مسلية الغريب بكل أمر عجيب" لعبد الرحمن البغدادي** د. حسن بن أحمد النعمي	٤٧٥
١١)	**قضايا القصة القصيرة في شهادات كتابها السعوديين** د. أحمد بن سعيد العدواني	٥٤٣
١٢)	**حي بن يقظان وروبنسون كروز بين المضمون ودلالات الفضاء المكاني -دراسة سردية مقارنة** د. مشاعل بنت عبود الشريف	٥٩٣
١٣)	**التقنيات الحجاجية في شعر معن بن أوس_ دراسة تداولية** د. جوزاء مفلح ضيغم العتري	٦٢٣

الحرَيرِي ومقَاماتهِ في المدوّنة التاريخيّة (مُعجمُ الأدباءِ نموذجًا)

Al-Harīrī and his Maqāmāt in the Historical corpus:
(Muʿjam Al-Oudabā as a case study)

د. أحمد سعيد الغامدي

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية بكلية اللغات والترجمة بجامعة جدة

البريد الإلكتروني: assalghamdi2@uj.edu.sa

المستخلص

تحلّل هذه الدراسة التصورات المبكّرة عن الحريري ومقاماته كما رواها "معجم الأدباء"، في محورين: يعالج الأول نظراتهم لكتاب المقامات وإقرارهم بالعجز عن منافسته، بينما يقارب الثاني النصوص التي تؤرّخ لتشكّل شخصية الحريري بوصفه مؤلّف المقامات، وما دار حول نسبة هذا الكتاب إليه من شبهات. وخلال ذلك تبيّن أنّ للحريري عند معاصريه صورًا مختلفة لا يتطابق بعضها مع تصوراتنا الحديثة عنه. وخلصت الدراسة إلى عدد من النتائج يمكن إجمالها في نتيجة أساسية، وهي أنّ ما بلورته الثقافة العربية الإسلامية من مفاهيم معرفيّة (كالبيان، والإعجاز، والنظم..) يجد صداه في المرويّات التاريخية المتعلقة بفنّ المقامات خصوصًا، والموروث السردي العربي عمومًا.

Abstract

This study analyses the first perceptions of Al-Hariri's Maqāmāt as narrated in "Muʿjam Al-Oudabā" within two axes:

The first one deals with their perspectives on Al-Maqāmāt book as well as their admission of the fact that they cannot emulate his style of writing. The second one compares between the texts that date the formation of Al-Harīrī's personality, considering him Al-Maqāmāt writer. It also discusses the suspicions about the fact that he was the genuine author of this book. Meanwhile, it became clear that Al-Harīrī's contemporaries had different perceptions of him, and some of these perceptions do not match with our modern ones.

The aforementioned study reached various results that can be aggregated in one principle result which says that all the cognitive concepts that have been clarified by the Arab-Islamic culture, such as rhetoric, miracles, and poetry, resonate with the historical narratives related to the art of Maqāmāt in particular, and the Arab narrative heritage in general.

المقدّمة:

لئن تجاسرتْ طبعةٌ حديثةٌ على الحدّ من هيمنة الحريري على مقاماته، فنسبتها رأسًا إلى بطلها التخييلي (أبي زيد السروجي)، فإنّ استعاضة الناشر عن مقدمته الخاصّة بمقالة مستعارة تسهب في "مديح الانتحال"[1] أتاحت للحريري البقاء في واجهة الأحداث من ناحية، وأحيت بالمقابل ذكرى جدال قديم كاد أن يفضي إلى حذف اسمه من صفحة الغلاف، لينسب ذلك المنجز الفريد من نوعه إلى مجهول.

والواقع أنّ علاقة الحريري بمقامات السروجي خصوصًا وفنّ المقامات عمومًا تأخذ في مجمل ما كتب عنه أشكالًا متباينة، يمكن إجمالها في المقولات الثلاث التالية:

- "**صاحب المقامات**": وهي مقولة تختصر شهادة الجماعة على نجاحه المنقطع النظير في تأليف المقامات والدفع بهذا الفنّ إلى أبعد مدى.
- "**رجل مقامات**": وهذا الوصف مغاير للسابق بما أنّه يصوّر الحريري وكأنّه لم ينجح في غير كتابة المقامات.
- "**منتحل المقامات**" وهي مقولة تباعِد بين الحريري ومقاماته، وتشكّك في مصداقيّة نسبة الكتاب إليه.

وجليّ أنّ هذه التصوّرات تعكس زوايا نظر مختلفة؛ فصورة مؤلّف المقامات الأمثل قائمة على الموازنة بين مقاماته ونظائرها عند آخرين، وعلى رأسهم بطبيعة الحال مبتدع هذا الفن: البديع الهمذاني. أمّا المقولة التي تلمح إلى عجزه عن إنتاج جديد يمتح من أسلوبه في المقامات فتشي باطّلاع واسع ألــمّ بمجموع نتاجه العلمي والأدبي. ومع أنّ دعواهم الثالثة تنطلق من حجج مقاربة لحجج المقولة الثانية؛ لكونها تزعم بأنّ أسلوب المقامات لا يشاكل أسلوب الحريري في أعماله الأخرى، إلا أنّ هذه الأخيرة سرعان ما تبدّدت، قبل أن نفهم كيف نشأت؟ وكيف انتهت؟

(١) ينظر: مقامات أبي زيد السروجي، تحقيق: مايكل كوبرسون، تقديم: عبد الفتاح كليطو، منشورات جامعة نيويورك، (أبو ظبي: المكتبة العربية، ٢٠٢٠).

وإذا صحّ أن تلك الدعاوى لم تنشأ من فراغ، وأنّها لا تخلو في مجملها من دلالات معرفية، إلى جانب ما تنمّ عليه من نظرات وخلاصات منهجيّة، فقد اكتسبت حقّها في الوجود والاعتبار بوصفها فرضيّات يمكن التحقّق من وجاهتها أو زيفها. على أنّ إجراءات من هذا القبيل تتطلّب — فيما أرى – إجراءات سابقة هي التي ستحاول هذه الورقة التصدّي لبعضها هنا، تاركة ما عداها لمناسبات أخرى.

ولعلّ مما يضمن بقاء تلك المقولات وما اندرج في إطارها في حدود الفرضيات بحيث لا تتدنّى درجة الثقة بها إلى حدّ يبعث على إهمالها ولا ترتقي بها المغالاة في التصديق إلى مصافّ المسلّمات، أن تحظى أبعادها وخلفيّاتها بجهود تسلّط الأضواء على المنابع والروافد، والدوافع الكامنة. ولا شكّ في أنّ المدونة التاريخية هي الحاضنة الأهم للمرويّات المؤسّسة لكثير من أحكامنا وتصوراتنا عن تراثنا النقدي. الأمر الذي يرهن تحسّن معرفتنا بذلك الموروث الغنيّ بمدى مواضبتنا على مراجعة هذه المدونة بين الفينة والفينة.

أما اختيار معجم ياقوت الحموي المعروف بـــ"معجم الأدباء" ليكون المدونة الرئيسة ونقطة ارتكاز هذا البحث، فيجسّد فرضيّة نتبنّاها هنا مفادها: أنّ بعض تلك المقولات الثلاث هي التي شكّلت البنية العامة لترجمة الحريري عند ياقوت. ذلك أنّ هذا المصدر يكاد ينفرد باستشكال واقعة النجاح الباهر للمقامات الحريرية، وكأنّه عدّها قضيّة مركزية من قضايا التراث الفكري الذي يؤرّخ له. على أنّ أثر تلك الأحكام على عمل ياقوت ربّما امتدّ إلى أبعد من ذلك، إذ يبدو من بعض فقرات ترجمته للحريري أنّه تبنّى بعضها، وسعى في المقابل إلى دحض بعضها الآخر على نحو صريح أحيانًا وضمني في أحيانٍ أُخر، كما نأمل أن يتّضح في حينه.

كلّ ذلك دلّنا على أهميّة مساهمة ياقوت في قضيّتنا هذه، وحاجة المرويّات والنصوص التي حشدها لقراءة لا تتّخذ منها شواهد على صورة الحريري في عصرنا الحاضر بقدر ما تحاول أن تستبطن صورته في مخيال عصره؛ فالحريري كان مغمورًا بمعايير زمانه، وأدنى إلى عوامّ الناس من خواصّهم فضلًا عن أن يكون فيهم "حجّة"

كما هي صورته في معظم المراجع والدراسات التي بين أيدينا.

نجد هذه الصورة بمفردها، مثلًا، على امتداد مقالة "مقامات الحريري"[1]. وبما أنّنا نسير على خطاها، ونقاسمها الاهتمام بالمدوّنة نفسها فقد أتيح لنا ملاحظة تركها النصوص التي تسمح لصور الحريري النقيضة بالظهور مع علمنا الأكيد بأن "معجم الأدباء" يضعها في إطار شديد البروز. على أنّ غياب هذه النصوص لا يشكل مأخذًا في حدّ ذاته، فلكلّ بحث الحقّ في أن ينتقي من المتن المدروس ما يلائم أهدافه ومنهجه، إلا أنّ العبرة هنا هي أنّ الأسئلة التي تثيرها تلك النصوص توصف بعدم الأهمية. وكأنّ التساؤلات: كيف، ومتى، ولمن.. كتب الحريري مقاماته؟ لا ينبغي أن تشغلنا اليوم؛ ((فإن الفصل في هذا الأمر ليس بهام، وما نهتمّ به هنا أنّ المقامات قد ألّفت، وأنّ مؤلّفها هو الحريري))[2]. وخلافًا لهذا المنحى، ذهب (شولتزه)[3] إلى أنّ جهلنا بالأسباب الحقيقيّة لظهور المقامات، حيث ظهرت مثل زهرة بريّة لا نعرف كيف تفتّحت، ربما كان أهمّ مسوّغ لدراسة هذه الظاهرة الأدبية الاجتماعيّة بدقّة وتمحيص أكبر، وهو ما غفلت عنه كثير من الدراسات، على حدّ وصفه.

والواقع أنّنا لا ننكر أنّ صورة الحريري في أذهاننا لم تعد تتأثر بالشبهات التي أثيرت قديمًا حول مقاماته؛ فقد ساد الاقتناع بأنّها تهمٌ زائفة، وأنّ الحريري هو حقًّا "صاحب المقامات". نعايش هذه القناعات من دون أن يعنينا أن نسأل: كيف، ومتى تكوّنت لدينا؟ من هنا حرصت هذه الورقة على أن يكون من بين أهدافها الرئيسة ـــ مع استعادة جانب وجيز من تاريخ القاسم بن علي بن الحريري (ت

(١) محمود فهمي حجازي، **مقامات الحريري**، مجلّة تراث الإنسانية، مج ٧،ع١، يناير – ١٩٦٩م، ص ص: ٨٧ – ١٠١.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٩٥ – ٩٦.

(٣) ينظر: سامي الربّاع، **بحث في المقامة العربيّة – فيرنر شولتزه**، مجلة المعرفة السوريّة، ع٢٨٨، ١ فبراير ١٩٨٦م، ص ص ٢١٤ – ٢١٥.

٥١٦هـ) ـــ الدعوة إلى مراجعة الاعتقاد بأنّ النظرة الواحدة والأحاديّة لأعلام التراث العربي هي أكثر وفاءً وأجدى نفعًا من تلك التي تبرز التعدّد والاختلاف في تصوّرات أولئك الأعلام عن بعضهم بعضًا.

وقد توسّلنا المنهج الوصفي التحليلي في قراءة نصوص منتقاة ـــ في الأغلب ـــ من "معجم الأدباء" تؤرّخ لظهور كتاب المقامات وتعرّف بصاحبه. وهذا ما أعان على معاملة هذه المدوّنة لا على أنّها مجرّد مستودع للأخبار المتعلقة بقضيّتنا، بل بوصفها عملًا يبلور موقف المؤرّخ من تلك النصوص ويجسّد تأويله الخاص لها. وهكذا كان على القراءة الحالية أن تنهض في وقت واحد بجهد مزدوج، لا يكتفي بمراجعة الروايات بل يحاول أيضًا ملء ما يُرى ويُشاهد من فجوات وفراغات في قراءات المؤرّخين لها.

وتبعًا لذلك جاءت الورقة في محورين رئيسين وخاتمة: الأول، وقد تفرّع إلى ثلاثة محاور صغرى، يعرض من خلال الشواهد المتوفّرة النظرة القديمة لكتاب المقامات وكيف تلقّاه الناس في البدايات ولحظات التخلّق الأولى، أما المحور الثاني، وقد توزّع بدوره على ثمانية محاور، فيقارب النصوص التي تؤرّخ لتشكّل شخصية الحريري ودخولها المشهد الثقافي بوصفه كاتبًا ومصنّفًا لكتاب المقامات.

[١]

كتاب المقامات في عيون معاصريه

١ – إسهام الحموي: النصّ المهمل

منذ مائتي عام تقريبًا وترجمة الحريري عند ابن خلّكان تتصدّر الطبعات العصريّة لمقاماته. نرى هذا التقليد ماثلًا في أهمّ طبعات الكتاب وأكثرها انتشارًا، كالأوروبية (باريس-١٨٢٢م)، والمصريّة (مطبعة الحسينية – ١٩٢٩م) وغيرهما. واللافت أنّ الناشرين لا يبرّرون عزوفهم عن تدوين قراءاتهم الخاصة لسيرة الحريري وفق المعطيات الحديثة كما هو منتظر منهم، وكأنّهم فضّلوا للأجيال الجديدة رؤية الحريري بعيون أهل زمانه، باعتبارهم الأقدر على فهم الأبعاد المحيطة بأعماله وما اكتنفها من دقائق وأسرار. ومن دون أن نقلّل من جهد صاحب "وفيات الأعيان"، ثمّة سؤال لا مفرّ من طرحه، وهو: لم فضّل ناشرو المقامات نصّ ابن خلّكان، وهو المتأخّر، على تلك الترجمة النفيسة التي كتبها سلفُه ياقوت؟ والجواب الذي يعفي من كثرة التفاصيل: هو أنّ الحموي ربما نفّرهم من نصّه طويل النفس بما حمّله من النقول والمقتبسات المسهبة في بعض المواضع، وهذا ما سلِمت منه الترجمة المختارة. وعلى كلّ، فمن مساعي هذه الورقة دعم الرأي الذي يؤكّد أنّ مساهمة ياقوت تكتسب قيمة خاصة من بين المصادر التراثية التي ترجمت للحريري[١]، بل لعلّها الترجمة الأجدر بأن تتصدّر تلك الطبعات القيّمة، إن كان لا بدّ من الإبقاء على هذه السُّنّة.

والواقع أنّ الصفحات الكثيرة التي أُفسِحت لـــ"صاحب المقامات" في "معجم الأدباء"[٢] هي بمثابة ترجمة للكتاب أكثرَ من كونها تعريفًا بمؤلّفه. صحيحٌ أنّ

(١) ينظر: حجازي، مرجع سابق، ص ص ٨٧ – ٨٨.

(٢) ياقوت الحموي الرومي، **معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م) ص ص: ٢٢٠٢ - ٢٢١٦. وستكون الإحالات في الصفحات التالية على هذا المصدر في المتن، بذكر رقم الصفحة بين قوسين.

المترجم أبدى اهتمامه ببعض مراسلات الحريري وما له في بعض المناسبات من أشعار، إلا أنّه لم يقل شيئًا عن بقيّة مصنفاته الأخرى، مكتفيًا بسرد عناوينها على عجل[1]. وفي حين ضنّ الحموي على قرائه برأيه الخاصّ في "الدرة" وأخواتها، بدا سخيًّا في تقريظ كتاب المقامات والتنويه بمآثره، حتى أنّنا قد نعجز عن وصف حظوظ المقامات الحريرية في الاهتمام والذيوع والانتشار بتعبير أدقّ من قوله: ((ولقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب ألبتّة)). (ص٢٢٠٥).

٢ – استقبال استثنائي:

يمكن لعديد المصادر مدّنا بمعلومات مفيدة عن وضعيّة الأوساط الثقافية عند ظهور مقامات الحريري[2]، غير أنّ ما عبّرت عنه مقدّمة معجم الحموي من مخاوف تجاه نظرة الناس إلى مصنّفه الخاص، يجعلنا نفترض أنّ تناوله هذه المسألة عند الآخرين لا بدّ أن ينبع من رحم معاناته الشخصية.

ليس جديدًا أن يشار إلى ما بلغته مقامات الحريري من نباهة الذكر، وبعد الصيت، واستطارة الشهرة، بعبارة بعض شرّاحه[3]. من هنا يبدو لافتًا أن يتخطّى كتاب الحريري كلّ تلك العقبات التي حذّر منها الحموي، وأبرزها قصور الهمم الذي طغى على المشهد الثقافي فشمل العالِـمَ والبليد على السواء، حتّى باتوا لا

(١) حجّة ياقوت في هذا الصدد هي أنّ كتاب المقامات يغني عن جميع مؤلفات الحريري الأخرى: ((وله تصانيف تشهد بفضله وتقرّ بنبله، وكفاه شاهدًا "كتاب المقامات" التي أبرّ بها على الأوائل وأعجز الأواخر)). (المرجع السابق، ص٢٢٠٢).

(٢) عن "المناخ المتدهور سياسيًّا واجتماعيّـًا الذي نشأ فيه الحريري"، ينظر: خليفة حارب اليعقوبي، **صورة المجتمع العباسي من خلال مقامات الحريري**، رسالة ماجستير، إشراف: سمير الدروبي، جامعة مؤتة، ٢٠٠٨، ص٢٨؛ والمصادر التي يحيل عليها.

(٣) ينظر: أحمد بن عبد المؤمن الشريشي، **شرح مقامات الحريري**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٢)، ص٣ (مقدمة التحقيق)

ينظرون إلى ما قيل، إنّما يسألون عمّن قال. (ص٤).

وإذا فهمنا من ذلك أن انتشار أي كتاب في تلك الأوقات غدا مشروطًا بكون مؤلّفه ذا شأن خطير، فإنّ ترجمة الحريري في "معجم الأدباء" تشهد بأنّه كان في عداد المغمورين عند أدباء بغداد خاصّة. روى الحموي عمّن "يثق به": ((أنّ الحريري لما صنع المقامة الحرامية وتعانى الكتابة فأتقنها... أصعدَ إلى بغداد فدخل يومًا إلى ديوان السلطان وهو منغَصٌّ بذوي الفضل والبلاغة محتفِلٌ بأهل الكفاية والبراعة، وقد بلغهم ورود ابن الحريري إلا أنّهم لم يعرفوا فضله، ولا اشتهر بينهم ببلاغته ونبله، فقال له بعض الكتاب: أيّ شيء تتعانى من صناعة الكتابة حتى نباحثك فيه؟..)). (ص ٢٢٠٣). وظاهر من هذا الخبر أنّ أدباء البلاط ما كانوا ليُخضِعوا ضيفهم للاختبار لو عرفوا له أدنى شأن في الكتابة والتأليف.

هذا إذن أوّل ملمح من ملامح سعادة المقامات الحريرية، وهو كسرُ السائد في تلقّي الكتب وتداولها، ذلك أنّ هذا الكتاب لم يتأثّـــر في رواجه وانتشاره الكاسحين بأيّ من التقاليد المعرقلة التي سادت الأوساط العلمية في القرن السادس الهجري وما بعده. بذا يكون نجاح المقامات قد خالف ظنون الحريري قبل غيره، بما أنّه كان يدرك – كما أشار في مقدمته[1] – أنّ رغبة الناس في الأدب تضاءلت حتى ركدت ريحه، وخبت مصابيحه. وسنتابع فيما يلي التنقيب عن مظاهر أخرى من مظاهر سعد المقامات قبل أن نصل إلى السؤال الذي نعتقد أنّ ترجمة الحريري عند ياقوت بمنزلة الجواب عليه.

٣ – تفاعل الخواص وأسئلتهم:

٣ – ١ – تجربة الشميم الحِلّي:

من الأخبار التي استدعاها ياقوت في ترجمة الحريري خبر علي بن الحسن بن عنتر، المعروف بالشُّمَيم الحِلّي (ت ٦٠١ه). وسرعان ما نعرف أنّه كان شديد

(١) القاسم بن علي الحريري، **مقامات الحريري**، (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٢٩)، ص ص: ٤ – ٥.

الإعجاب بنفسه، مدلًّا بعلمه وأدبه إلى درجة كبيرة، حتى أنّه لم يكن يقيم لأحد من أهل العلم والأدب المتقدّمين أو المتأخرين وزناً، ومع ذلك فقد رسَخَ في ذهنه هذا الاعتقاد: ((وما أعلمُ أنّ الله خلقني إلّا لأظهر فضل ابن الحريري)). (ص١٦٩٢). ويبدو أنّ نظرة الحلّي الإيجابيّة للمقامات وصاحبها ليست موقفًا ابتدائيًّا ثابتاً بقدر ما هي نتيجة تحوّل تدرّجي من موقف المتشكّك إلى موقف المؤيد، بل المناصر بكل إخلاص كما أكّد ذلك بأقوى عبارة، ولهذا يمكن أن نتساءل: أليس من الإجحاف أن يختزل مجهود أديب اعتقد جازمًا بأنّ إظهار فضل الحريري من أعظم مهام حياته، في مثل هذه الجملة التي كتبها ياقوت: ((وشرَحَ مقاماته بشرحٍ قُرئ عليه وأُخِذ عنه))؟ (ص٢٢٠٦).

لنلاحظ أولًا أنّ أخبار هذا الرجل تتناقض أحيانًا إلى حدّ التعارض، لا عند ياقوت فحسب، بل في معظم المصادر التي ترجمت له أو تناقلت نوادره، وتبعًا لذلك وجدنا صورته في المراجع الحديثة مثالًا لازدواج محيّر[1]. ويغلب على الظنّ أنّ تناقضات الحِلّي ومواقفه المشهودة أغرت الحموي باستدعاء تجربته لتعينه على شرح تصوراته الخاصة عن الحريري ومقاماته بأوجز عبارة، بذا لزمنا أن نلمّ بطرف من أخباره تيسّر التصدّي للسؤال السابق.

قد يتراءى لنا أنّ ما ورد في ترجمة الحريري عن شُميم لا يفي بغرض المترجم؛ ففي حين يشهد له ابتداءً بأنّه ((كان من العلم بمكان مكين، واعتلق من حباله بركن ركين)). (ص٢٢٠٥). نراه يردف ذلك بشيء من ادّعاءاته بالتفرّد في كلا الصناعتين، الشعر والنثر معًا، كزعمه أنّه لو سلك طريق المتنبي لبرز عليه ولساق فضيلته نحوه ونسبها إليه، وأنّ خطبه أحسن من خطب ابن نباتة... وهي

(١) ينظر مثلا:

جواد أحمد علوش، **شميم الحلي**، مجلة العربي الكويتية، ع٥٩، أكتوبر – (١٩٦٣).

عباس هاني الجراخ، **شميم الحلي حياته وشعره** (الحلة – بابل: دار الصادق للطباعة والنشر، ٢٠٠٨)

ادّعاءات تجعلنا في حيرة من أمر أديب شهد له ياقوت، وكلّ منّا يعرف منزلة ياقوت من العلم والتحقيق والنزاهة. والحقّ أنّ الحمويّ لا يتحمّل تبعة هذه الحيرة؛ فما يقوله عن الشميم في هذا الموضع من كتابه مجرّد إلماعة خاطفة إلى ما أورده مفصّلاً في ترجمته. وهذا ما يجعل العودة إليها شرطًا لإدراك الغاية من ورود خبره في ترجمة الحريري، لاسيّما الأسطر الأخيرة منه، وهي التي يستهلّها بقوله: ((قلتُ: فما منعك أن تسلك طريقته وتنشئ مقامات تُخمِد بها جمرته، وتملك بها دولته؟ فقال: يا بنيّ، الرجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل، ولقد أنشأتها ثلاثَ مراتٍ ثم أتأمّلها فأسترذلها، فأعمد إلى البِـــركة فأغسلها. ثم قال: ما أظنّ الله خلقني إلا لإظهار فضل الحريري)). (ص٢٢٠٦). فمن دون هذه الخطوة قد يتراح هذا النصّ عن سياقه الجدّي الخالص إلى سياق تهكّمي يبدو فيه ياقوت ساخرًا من الرجل حين يسأله عمّا منعه عن معارضة مقامات الحريري، في حين أنّه لم يكن يتشوّف هذا المطلب إلا عند من هو فيه بمكان مكين، كما قال.

ومن المهمّ أن نعلم أنّ الحموي لا يحدّثنا هنا عن رجل سمع به أو عرفه في لقاء عابر، بل عمّن جمعته به علاقة وثيقة[1]. ومع أنّ الحموي لا يتذكّر بالتحديد متى التقى بالشميم في (آمد) لأوّل مرّة؛ فهو في ترجمته يقول إنّه التقاه سنة (٥٥٩٤)، وفي ترجمة الحريري يذكر السنة التي قبلها، إلا أنّه لم ينس أنّه كان حينها ((في عنفوان الشباب وريعه)). (ص٢٢٠٥). وأنّ شغفه بالأدب والأدباء قاده إلى هذا الشيخ الذي ليس له عند الآمديين إلا صورة الأديب الفذّ، ولهذا قصده وليس له من هدف إلا الانتفاع بعلمه. (ص١٦٨٩). وبالفعل، فمنذ اللحظات الأولى شرع الشاب في تحصيل مغانمه العلمية من لقائه بشيخه.

٣ – ٢ – مقدّمات السؤال المحوري:

ومما حفظ ياقوت للشميم آراءه في تلقّي المؤلّفات والنصوص، ومن ذلك أنّه

(١) ينظر: جمال الدين القفطي، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٨٦)، ٢/٢٤٤.

يميّز ما يمكن تسميته "**التفاعل البَيانـــيّ**"، عن نوع آخر يغالي الشيخ في التهوين من شأنه بجعله شبيهًا باستجابات البهائم، ويمكن أن ندعوه "**التفاعل الـــعِيَّـــوِيّ**"[1]. ومنطلق التمييز بين هذين النوعين في تلقّي النصوص، هو أنّ الأوّل يحصل عبر ردّة فعل ظاهرة ومحسوسة، أما الثاني فوجداني مكتوم لا يعقبه أثرٌ ملحوظ، وهو لهذا أقرب ما يكون إلى إحساس العجماوات بما في محيطها من مؤثّرات جمالية.

فإذا أقصينا النوع الثاني الذي ازدراه الشيخ ومعه سائر البيانيين، ألفينا (**التفاعل البَيانيّ**) عنده على عدة أضرب:

٣ – ٢ – ١ – التفاعل الكلامي:

لهذا الضرب من التفاعل قاعدة أساسية تدلّنا عليها بعض حوارات الرجلين: ((ثم أنشدني... فاستحسنت ذلك، فغضب وقال لي: ويلك يا جاهل، ما عندك غير الاستحسان؟ قلت له: ما أصنع يا مولانا؟..)). (ص١٦٩١). ويظهر من هذه الحدّة في الردّ أنّ إبداء الاستحسان أو الاستقباح بلفظ انطباعي عابر، كقولهم "أحسنت" أو "أسأت"، ليس فيه أيّ ميزة تنأى به عن تفاعل العييّ الذي لا يُبين، وكأنّ الشميم كان ينتظر من محاوره المبادرة بإنتاج فعل كلامي معلّل ينتفع به الجميع[2].

والحقّ أنّ في أخبار الشميم ما ينمّ على أنّ تفاعلاته الكلامية مع النصوص

(١) من (ع ي ي) نسبة على غير قياس إلى العيّ، وهو العجز عن التعبير اللفظي بما يفيد المعنى المقصود، وعدم الاهتداء لوجه المراد والعجز عن أدائه. (ينظر: محمد ابن الزبير، **موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب**، (مسقط: جامعة السلطان قابوس، ١٩٩٠)، ٦٨٢/٢)

(٢) هذا ما يشهد به ردّه على شاعر مغمور سيرد خبره قريبًا؛ إذ لما سمع منه شعرًا حسنًا لم يكتف باستحسانه بكلمة عابرة، بل نجح في استخراج أفضل ما عنده ودفعه إلى أن يرتجل في مجلسه ذاك نصّا يفوق في روعته ما أنتج على مهل ورويّة، و لم يزد الشميم على أن قال له: ((إنّي أرفع هذا الشعر عن طبقتك..)). (ص١٦٩٥).

وأصحابها لا تسير على ذاك النحو الهادئ الرصين الذي توقّعه الحموي، فقد أُثـــرتْ عنه عبارات كثيرة تبعث على الدهشة والإرباك. لنلاحظ مثلًا جوابه على قولَ ياقوت: ((أحبّ أن أسأل مولانا عن شيء إن أذِن لي. فتبسّم وقال: ما أراك تسأل إلا عن معضلة، هات ما عندك، قلتُ: لَمَ سُمّيتَ بالشُّميم؟ فشتمني، ثم ضحك وقال...)). (ص١٦٩٢). فالملفوظ الشتمي الوارد هنا يأتي في سياق الاستحسان، بدليل أنّ الشُّميم لم يتردّد في الترول عند رغبة سائله ليوقفه على أصل لقبه بتفصيل ظنّ معه أنّه قد بلغ الغاية في إرضائه. وجليّ أنه لو استقبح السؤال أو احتقر السائل لاكتفى بشتمه أو غيّر مجرى الحديث. على أنّ هناك مؤشرًا آخر على طبيعة هذا السياق، وهو أنّ الراوي لم يذكر الألفاظ التي سمعها بالتحديد وإنّما كنّى عنها بقوله "فشتمني". وأغلب الظن أنّها من قبيل قولهم: "قاتله الله!"؛ ذلك أنّ بيان الاستحسان بهذا التعبير ونظائره أسلوب عريق في الثقافة العربية، وعلى كلّ فإنّ راوي الخبر لم يورد العبارة بلفظها وإنّما اكتفى بالمعنى، ولا يسعنا في هذه الحالة أن نقوّل الرجل ما لم يقل.

وفي هذا الإطار لا يمكن تجاهل المبرّرات التي فرضت على ياقوت التخلّي عن دقّته المعهودة عند تسجيل الألفاظ التي سمعها، إذ يمكن إرجاع ذلك إلى بُعد المدى الزمني الفاصل بين حصول الواقعة وتدوينها، ومع ذلك فقد نجحت جهوده في إنقاذ بعض مصطلحات الشميم النقدية من الضياع والاندثار (لفظة الخلق بمعناها الفنّي المخصوص مثلًا – ص١٦٩٢)، إلا أنّها كغيرها من الجهود التاريخيّة لم تفلح في استنقاذ قدر أكبر من مفردات معجمه النقدي، بل عرّضتها عند نقلها بالمعنى لتشويه حدّ من ثقلها المعرفي. ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح في أخباره التي تتعلق بشعراء كبار مثل أبي تمام والمعرّي وغيرهما. وهنا أمثلة دالّة:

- ((ثم سَبَع أبا تمام وشتَمه)). (ص١٦٩٠).
- ((وجعل يزري على المتقدمين ويصف (يسفّ؟)، ويجهّل الأوائل ويخاطبهم بالكلب)). (ص١٦٩٠).

- ((ثم سألته عمّن تقدم من العلماء فلم يحسن الثناء على أحد منهم، فلما ذكرت المعرّي نهرني وقال لي: ويلك... ذلك الكلب الأعمى ..)). (ص١٦٩١)

فإذا دلّت هذه النصوص وأمثالها على أنّ التجاوب السلبي مع الآثار الفنيّة مما يزدريه الحلّي ويترفّع عنه، وأنّ الغالب على تلقّيه النصوص والمؤلّفات أن يكون تفاعلًا حقيقيًّا ومشهودًا، فهي مع ذلك تطوي تحتها تفاعلات كلامية مهدرة، لضياع النصوص الأصلية من جهة، وللتّباعد الفكري بين الخواص وعامة المتعلمين آنذاك، من جهة أخرى. ولعل هذا معنى شكوى الشميم: ((هذا كلام لا يحتمله العامة لكونهم لا يفهمونه)). (ص١٦٩٢). من هنا كانت ضغوط سوء الفهم[1] ترغم الشميم على الصمت أحيانًا، ولكنه غالبًا ما كان يفلح في جعله فعلاً بيانيًّا ناطقًا بالدلالة: ((قلت: إنّي لا أراك تذمّ أحدًا من أهل العصر، فقال لي: ليس لأحد منهم قيمة فإنّه لا يصلح للذمّ إلا من يصلح للمدح...)). (ص١٦٩٣). وإذا كان "الصمت البياني" بديلًا ناجعًا عن التفاعلات الكلامية الصريحة الجالبة للمتاعب، فإنّ الشميم لم يعدم الحيلة في أن يجد لها بدائل أخرى أكثر دلالة وأقلّ خطرًا. والمقطع التالي يوقفنا على أحدها.

٣ – ٢ – ٢ – التفاعل الجسدي:

وهذا النوع من ردود أفعال الشميم تجاه المسموع والمقروء أظهر ما يكون في حالة الاستحسان، لكنّ هذا لا يعني أنّه لا يقع في الحالة النقيضة. إذ يمكننا أن نفترض أنّ كل تلك الملفوظات السلبية التي نجدها في ترجمته كانت مصحوبة بتفاعلات جسدية، إلا أنّ الراوي وقد عوّدنا على توثيق الحوارات بالمعنى بدلًا من

(١) يبدو أن أغلب ما يكال للشميم من تهم إنّما هو نتيجة لسوء فهم العوام لتآليفه، كاتهامهم له بالجنون أو الكفر وما إلى ذلك. (ينظر: القفطي، مرجع سابق، ٢/٢٤٣ وما بعدها). يشار هنا إلى أنّ دارسيه المحدثين مجمعون على تهافت تلك التهم وزيفها.

اللفظ، ربما عدّ الإشارة إليها من فضول الكلام.

فإذا سايرنا الحموي في رصده تفاعلات الشيخ مع حالات الاستحسان فقط، لاحظنا أنّها تتدرّج في مستويات عدة تبعًا لتفاوت درجات الإعجاب ارتفاعًا وانخفاضًا. ولنبدأ أولًا بالإشارة إلى مستوى يسمح بتدقيق فهمنا لردّه العنيف على ياقوت على نحو يدنينا من غايتنا الأساسية من تحليل مرويات الشميم، وهي التحقّق من صحة فرضنا بأن ياقوت كان جادّا عندما عجب من أنّ الشميم لم يقدم على تأليف كتاب يعارض به مقامات الحريري. وهنا نستعيد جزءًا من ذلك الخبر: ((ثم أنشدني... فاستحسنت ذلك، فغضب... قلت له: ما أصنع يا مولانا؟ قال: تصنع هكذا، ثم قام يرقص ويصفّق، إلى أن تعب ثم جلس... فاعتذرتُ إليه)). وظاهر أنّ الشميم ما كان يودّ من ياقوت أن يستقبل النصوص التي يستحسنها بالرقص والتصفيق، بقدر ما سعى إلى تحذيره من الاستهلاك السلبي للنصوص، وإغرائه بدلاً من ذلك بالتلقّي الإنجازي الإيجابي، ليكون استحسانه أو استقباحه لأي نصّ محفّزًا له كي يبادر إلى إنجازه الشخصي الذي يحسب له.

ومن طريف أشكال التفاعل المأثورة عن الشميم: تغيير وضعية الجسد والوقوف على الرأس تعبيرًا عن احترام النص بطريقة تفرض على الحضور أن يكونوا شهودًا على تفاعل حقيقي لا تقوى عليه الأجساد "شبه الآدمية"[1].

ولئن تقاربت مستويات التفاعل الجسدي إلى الحدّ الذي يصعب معه تمييز أضعفها من أقواها، فثمة ردّة فعل لا جدال في احتلالها أعلى مراتب الاستحسان، وهل يملك المرء أن يعبـّر عن احترامه للنصّ بفعل أبلغ دلالة من المسارعة إلى "السجود"؟ روى ياقوت (ص١٦٩٥):

(١) ((جاء الشميم إلى حلب، فدخلنا عليه مستفيدين، فرأيته يومًا وقد أنشد لنفسه شعرًا كثّرنا الاستحسان إليه، فقام إلى أحد أركان المنزل، ونام على ظهره، ورفع رجليه إلى الحائط، ولم يزل يرتفع حتى صار واقفًا على رأسه، ثم جاءنا وقال: هكذا يشكر الله على النعمة، وهو أن يقف الإنسان على رأسه لا على رجليه)). (القفطي، مرجع سابق، ٢/٢٤٤).

وحدّثني الفقيه قال: بلغني أنّ الحلّي قدم إلى أسعرت فتسامع به أهلها فقصدوه من كلّ فوج، وكان فيهم رجل شاعر، فأنشده الرجل شعرًا استجاده، فقال له: إنّي أرفع هذا الشعر عن طبقتك، فإن كنت في دعواك سابقًا صادقًا فقل في معناه الآن شيئًا آخر. ففكّر ساعة فقال:

وما كلّ وقت يسمحُ فيه خاطري بنظم قريضٍ يقتضي لفظُهُ معنى

و لم يبح الشرعُ المبينُ تيمُّمًا بترب وبحر الأرضِ في ساحةٍ معنا

فقال له الحلّي: ويحك اسجد، ويلك اسجد. فإنّ هذا موضع من مواضع سجدات الشعر، وأنا أعرف الناس بها.

لنلاحظ هنا أنّ الشميم لم يقل شيئًا عن "معنى" هذا النص الذي استحسنه كثيرًا، وإنما اكتفى باستدعاء "السجدة البيانيّة" التي إن حضرت أبلغت الجمع بأنّهم أمام مناسبة استثنائية. الأمر الذي يوقفنا على شاهد يعضد وجهة النظر القائلة بأنّ وظيفة النقد ليست الكشف عن المعنى، وأن قضيّة المعنى فيه قضيّة ثانويّة[1]. فإذا ساءلنا مدوّنتنا عن الأساس الذي كان يمكّنهم من المفاضلة بين المؤلّفات والكتّاب، وجدناها شاهدة على أنّ تفضيل أديب على أديب إنّما يبرز للنقّاد أكثر، ويذكرونه بكثير من الفرح والسرور، عندما يطآن نفس الموطن ويقولان نفس المعنى، ولكنّ الواحد منهما يقوله بطريقته الخاصة التي تختلف عن طريقة الآخر.

٣ – ٢ – ٣ – المعارضة النصيّة:

وهنا نصل إلى أهمّ ما دلّنا عليه الشميم من مظاهر التفاعل البياني مع النصوص والآثار، وهو معارضتها ومضاهاتها بنصوص جديدة من جنسها. وتكمن أهميّة هذا المبحث في علاقته الظاهرة "بسؤال المعارضة" الذي يتعجّب من كون الشميم لمْ يؤلّف مقامات تدحض مقامات الحريري. وجليّ أنّ الحموي لم ينتظر هذا المنجز ممّن يعجز عنه ما لم يكن ساخرًا، وهذا الفرض الأخير يمكن فحصه على عجل.

(١) عبد الفتاح أبو مدين (وآخرون)، ندوة النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، مجلة علامات في النقد، منشورات نادي جدة الأدبي، ج٦، ع٢، (١٩٩٢م)، ص٢٦.

الواقع أنّ سؤال المعارضة يتكرّر في المعجم مرتين؛ إذ يرد في ترجمة الحريري في سياق موهم بأنّ الحموي كان حقّا يهزأ بالشميم؛ فهو يقدّم لسؤاله بالقول: ((فلمّا أبرمني وأضجر، وامتدّ في غيّه وأصحر...قلتُ: فما منعك من أن تسلك طريقته وتنشئ مقامات تخمد بها جمرته وتملك بها دولته؟)). (ص٢٢٠٥). لكنّ العودة إلى ترجمة الشميم توقفنا على سياق مختلف تمامًا، إذ نجده سؤالًا هادئًا لا يحفّ به ضجر ولا ملل. وكيف تتولّد هذه المشاعر في صدر السائل وسؤاله ذاك يأتي في لحظات التعارف الأولى؟ كتب الحموي:

وكنت قد وردت إلى آمد ... ودخلت عليه... وبين يديه جمدان مملوء كتبًا من تصانيفه فحسب، فسلمت عليه وجلست بين يديه... ثم قلت له: إنّما جئت لأقتبس من علوم المولى شيئًا، فقال لي: وأيّ علم تحبّ، قلت له: أحبّ علوم الأدب، فقال: إنّ تصانيفي في الأدب كثيرة، وذاك أنّ الأوائل جمعوا أقوال غيرهم وأشعارهم وبوّبوها، و[أمّا] أنا فكل ما عندي من نتائج أفكاري، وكنت كلّما رأيت الناس مجمعين على استحسان كتاب في نوع من الآداب استعملت فكري وأنشأت من جنسه ما أدحض به المتقدّم... قلت: فما فيهم قط أحد جاء بما يرضيك؟ فقال: لا أعلمه، إلا أن يكون المتنبي في مديحه خاصة، وابن نباته في خطبه، وابن الحريري في مقاماته، فهؤلاء لم يقصّروا. قلتُ له: يا مولانا قد عجبتُ إذ لم تصنّف مقاماتٍ تدحضُ بها مقامات الحريري. (ص١٦٨٩ – ١٦٩٢)

ومما يشهد بأنّ سؤال المعارضة حقيقيٌّ لا سخرية فيه ولا تهكّم، أنّه لم يطرح إلّا حين أخذ الحموي يتفحّص محتويات الصندوق المكتظ بمصنّفات الشميم، وبعد وقوفه على أشهر كتبه في المعارضة، ومنها:

– "**كتاب الحماسة الحِلّية**" الذي عارض به حماسة أبي تمام. وقد تأكّد اطّلاع الحموي عليه من وصفه حجمه وهو يعدّد تصانيف الشميم التي تجاوزت الأربعين كتابًا: ((وكتاب الحماسة من نظمه مجلّد)). (ص١٦٩٦). ويبدو أنّ هذا الكتاب كان يشهد رواجًا، بدليل أنّ المقتطفات التي أوردها منه ياقوت مستقاة من مصادر أخرى غير الشميم.

- كما تفحّص أيضًا دعوى[1] معارضة الشميم لكتاب أبي نواس بكتاب سمّاه "**الخمريات**"، فالحموي لا يترك هذه الدعوى تمرّ حتى يتحقّق من صحتها: ((وقلت له: فأنشدني شيئًا مما قلت، فابتدأ وقرأ عليّ خطبة كتاب الخمريات...)) (ص١٦٩٠).

– أما ثالث كتب المعارضة الذي لم يكن ياقوت ليرتاب في وجوده فهو "**كتاب الخطب**"[2]، كما وقف الحموي على عدة مصنفات له في هذا المجال. (ص١٦٩٦)

من هنا يمكننا تبيّن وجاهة سؤال المعارضة، وكونه السؤال المنطقي الذي لا بدّ أن يتشكّل في ذهن من تيقّن من امتلاك محاوره لهذه المقوّمات:

أ - شغفه بمعارضة المؤلّفات التراثية النوعيّة، لاسيّما أوسعها انتشارًا وأعظمها مكانةً.

ب – كفاءة أدبية نادرة أحاطت بصفحتي الإبداع شعره ونثره.

ج – شجاعة أدبية منقطعة النظير، أقصت عن مخيّلة صاحبها أهمّ عائق من عوائق التأليف وهو وطأة المنجز القديم وهيبته.

د – اعترافه بأنّ الحريري أحد المؤلّفين القلائل الذين "لم يقصّروا"، وهو ما يجعل كتابه مؤهّلًا للمعارضة بامتياز.

وإذا تأكّدتْ من هذا أهميّة سؤال الحموي ومناسبته للمقام، فلنعتـــرف للسائل بفضله في إزاحة واحدة من أهم المعضلات التي تحول دون الوصول إلى إجابة مقنعة على سؤاله، وهي معضلة التحقّق من وجود تلك المؤلّفات التي لولا أنّ

(١) وهذا نصّها: ((ثم رأيت الناس مجمعين على تفضيل أبي نواس في وصف الخمر فعملت كتاب الخمريات من شعري، [و]لو عاش أبو نواس لاستحيا أن يذكر شعر نفسه لو سمعها)). (ص١٦٩٠)

(٢) وهو الذي قال عنه الشميم: ((ورأيت الناس مجمعين على تفضيل خطب ابن نباتة فصنّفت كتاب الخطب، فليس للناس اليوم اشتغال إلا بخطبي)). (ص١٦٩٠).

الحموي سمّاها بالاسم، ووصف مخطوطاتها، وأورد مقتطفات منها لخُيّل إلينا أنّ تفاخر الشيخ بمعارضاته مجرّد تفاعلات وهميّة. ومما يحسب له كذلك أنه أوقفنا على سمة تميّز هذا النوع من تلقّي النصوص، فهو لا يمثّل ردّة فعل متسرّعة بقدر ما يقوم على الملاحظة والتدبّر والتأمّل، فضلًا عمّا ينطوي عليه فعل المعارضة من نوايا ومواقف تجاه النصوص الأصليّة. ولعلّ الشميم لا يمثّل استثناء في هذا الصدد كما سيتضح وشيكًا، وإن كانت حالته تبرز معضلات أخرى عديدة لا مفرّ من مجابهتها. ويأتي على رأسها: التحقّق من زعم الشميم بأنّ مؤلفاته قد تمكّنت حقًّا من "**دحض**" المؤلّفات التي استهدفها بالمعارضة؛ فليس في أيدينا شواهد نصيّة كافية تسمح بعقد المقارنات والمناظرات، غير أنّ ادّعاء قدرته على توفير المؤلّفات البديلة القادرة على منافسة المؤلّفات السابقة قد يكتسب شيئًا من المصداقيّة إذا أخذنا في الاعتبار أنّه انتهج في المعارضة نهجًا فريدًا. ولضيق المقام نكتفي بمعارضته "حماسة أبي تمام"، وهو أكثر الكتب المذكورة هنا أهمّيـــّةً وأبعدها شهرةً.

وأوّل ما تجب ملاحظته أنّ الخلود الذي كُتِب لحماسة أبي تمام في مقابل اندثار الحماسة الحلّية وضياعها لا ينبغي أن يتّخذ دليلًا على ضعف الأخيرة. ويكفي أن نتذكّر المصير الذي آلت إليه مؤلّفات أخرى عارضت حماسة الطائي، وعلى رأسها "حماسة البحتري"، فهذا الكتاب الذي تولّد نتيجة دوافع مطابقة لدوافع الشميم، أي الإطاحة بكتاب أبي تمام ودحضه، ظلّ مجهولًا عند العرب إلى وقت قريب جدًّا[1]. ولا شكّ في أنّ الفشل الذي مني به مسعى البحتري خير دليل على أنّ خمول كتاب ما لا يعني بالضرورة ضعف موهبة صاحبه[2].

(١) يشهد بذلك قول شيخو: ((من جملة الكتب الأدبية التي أضحت في عهدنا أعزّ من بيض الأنوق ديوان حماسة أبي عُبادة الوليد بن عُبيد الشهير بالبحتري. وهو مجموع جليل لم يكد الشرقيون يعرفون اسمه..)). (لويس شيخو، **ديوان حماسة البحتري**، مجلة المشرق، ع٢٣، ١ ديسمبر ١٩٠٠، ص١٠٩٥)

(٢) يقول كراتكشوفسكي: ((ولم يكن ذلك راجعًا إلى نقص عند البحتري في الاستعداد أو =

والظاهر أنّ الشميم أقدم على معارضة حماسة أبي تمام وهو يدرك أنّ الثقافة منحازة إليه انحيازًا تامّا، وأنّها لا بدّ أن تسقط منافسيه واحدًا بعد الآخر[1]. وليس من المستبعد أنّه كان يمنّي النفس بمجيء اليوم الذي تنقلب فيه الموازين لينتصر كتابه في النهاية فيدحض به المتقدّم. وعلى كلّ فيهمّنا أن نلاحظ أنّ نظرته للمؤلّفات الرائجة في عصره يحكمها مبدأٌ أساسي، وهو أنّها كلّها قابلة للمعارضة ما عدا كتاب واحد. وأغلب الظنّ أنّ تهمة إقدامه على تأليف كتاب يعارض به النصّ القرآني[2] إنـــّما هي صدى مبالغ فيه لهذا المبدأ الذي شمل كافّة ما عرف من مؤلّفات إلا الكتاب الذي استثناه صراحة.

٣ – ٣ – المقامات الكتاب العصيّ على المعارضة:

لعلّه اتّضح مما سبق أنّ القول بأنّ الشميم ترجم وعده بإظهار فضل الحريري في كتاب يشرح به المقامات، لا ينصف جهوده، ولا يبيّن سبب استدعاء خبره في ترجمة الحريري، لا سيّما أنّه لا يدخلها بصفته شارحًا للمقامات، وقد شرحها قبله وبعده خلق كثير، بل بوصفه "من عجيب ما رآه

=

الموهبة الشعرية. فالبحتري أكثر موهبة من أبي تمام، وإنما يكمن الذنب والخطأ في اختيار المواد. لقد أراد البحتري أن يضع مؤلفًا يحجب بقوّة مؤلَّف أبي تمام... ولكن مع موهبته الشعرية التي لا شك فيها استطاع أن يضع مؤلَّفًا كتب عليه القدر أن يكون نسيًا منسيًّا لدى بني جلدته وعشيرته)). (أغناطيوس كراتشكوفسكي، **حماسة البحتري وأوّل باحث لها في أوربا**، ترجمة: محمد مرسي، مجلة الرسالة، ع ١٠٢٨، ٢٦ سبتمبر ١٩٦٣، ص٧).

(١) هذا ما يفهم من قولهم: ((وليست طريقة البحتري في ديوان حماسته كطريقة أبي تمام... ومن نظر في هذه الحماسة وجدها أغنى وأوسع من حماسة أبي تمام وتعجَّبْ كيف شاعت هذه وأهملت تلك)). (شيخو، مرجع سابق، ص١٠٩٦).

(٢) يقول عنه الذهبي: ((..كان يتكَلَّم في الأَنْبياء، وَيستخفّ بمعجزَاتِهم، وَأَنَّهُ عَارض القُرْآن، وَكَان إِذَا تلاَهُ، يَخشع وَيسجد فيه... وَلَعلَّهُ تَاب)). (شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤ه)، ٤١٢/٢١.

الحموي وشاهده". (ص٢٢٠٥). ولاستيعاب هذا المشهد العجائبي يجدر التنويه بأنّ سؤال المعارضة قد اتّجه رأسًا إلى مقامات الحريري في أثناء حديث الشميم عن ثلاثة كتب، هي على التوالي: "ديوان المتنبي"، و"خطب ابن نباتة"، و"مقامات الحريري". فلماذا اختصّ مقامات الحريري من بينها؟

الحقّ أنّ "خطب ابن نباتة" لا بدّ أن يستبعد من هذه القائمة؛ فقد عرفنا أنّ الشميم أنجز بالفعل كتابًا يعارضه به. أما نتيجة هذه المعارضة فهي – على حدّ زعمه – النجاح الباهر والدحض التامّ: ((.. فليس للناس اليوم اشتغال إلا بخطبي)). (ص١٦٩٠). غير أنّ لبعض الشهود رأيًا آخر قد يحدّ من هذا التفاؤل[١].

بقي لنا إذن الكتاب الأوّل "ديوان المتنبي" لنتساءل: لماذا لم ينبرِ الشميم لمعارضته، مع علمه الأكيد بمدى استحسان الناس له؟ لنلاحظ أنه أجاب على سؤال الحموي: فما فيهم قط أحد جاء بما يرضيك؟ **بقوله:** لا أعلمه، إلا أن يكون المتنبي في مديحه خاصة... ولو سلكت طريقه لما برز عليّ ولسقت فضيلته نحوي ونسبتها إليّ. (ص١٦٨٩، ص٢٢٠٥). وظاهرٌ أنّ هذه الإشارة لا تقدّم جوابًا شافيًا؛ فالرجل يبقي المعارضة في مجال الافتراض والتوقّع، إلا أنّه نفى السير على منوال المتنبي في المديح من دون أن ينفي معارضته. وأغلب الظن أنّ هذه المعارضة وقعت بالفعل ولكن وفق طريقة الشميم الخاصة. وليس هذا ببعيد على من نراه في كلّ معارضاته يفرض منهجه الخاص المستمدّ فقط من "نتائج أفكاره".

وللوصول إلى علّة نفوره من مسلك المتنبي، يلزمنا إثبات موقفه من المديح ككل، لاسيّما أن الرجل كان ذا شاعرية انتقائية، فهو على وصفهم ((أديبٌ شاعر، عزيز الشعر في فنون، تامُّ العلم باللغة، واسع الحفظ..))[٢]. على أنّ الدوافع

(١) ينظر: صلاح الدين الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث، ٢٠٠٠) ص٢٠٦/٢٠.

(٢) ابن الشَّعَّار الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**، تحقيق: كامل سلمان الجبوري (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥) ٣٠٨/٣.

الشخصية والميول الذاتية ليست هنا سيدة الموقف، بما أنّ غاية تحطيم أمجاد المؤلّفات الناجحة من أكبر الحوافز التي تحكّمت في معارضاته. ولهذا وجدنا السبب الوحيد لتأليفه كتاب "أنيس الجليس"، أنّه رأى استحسان الناس لأشعار البستي في صلاح الدين. (ص١٦٩١). وهناك مؤلّفات أخرى عدّدها له ياقوت تشي عناوينها بأنّها في غرض المدح (ص١٦٩٧). كما أننا نعثر في أخباره على مثل هذه الإشارات: ((ومدح الأكابر وأخذ جوائزهم))[١]؛ ((فورد حلب ودمشق وغيرها من البلاد ومدح الملوك))[٢]. في الوقت الذي نراهم مجمعين على أنّه لم يكن يحفل بالأكابر ولا يقيم لهم أدنى اعتبار[٣]، الأمر الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأنّ أخبار هذا الرجل لا تتناقض بمحض الصدفة، وأغلب الظنّ أنّ ذلك نتيجة لاختياره مسلكًا نادرًا، وهو الاستقلال الكلّي عن السلطة السياسية والإعراض عنها إعراضًا تامًّا؛ إذ لا يستبعد على من سوّلت له نفسه أن "يدسّ إليه من يؤذيه حتى يخرجه عن بلده"[٤]

(١) ابن خلّكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الفكر، ١٩٧١) ٢٩٧/٣.

(٢) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد وذيوله**، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧ه) ٢٠٢/١٨.

(٣) روى ياقوت: ((... لما قدم الحلّي إلى الموصل انثال إليه الناس يزورونه، وأراد نقيبُ الموصل، وهو ذو الجلالة المشهورة بحيث لا يخفى أمره على أحد زيارته، فقيل له: إنّه لا يعبأ بأحدٍ ولا يقومُ من مجلسه لزائر أبداً ... وجاءه النقيب ودخل وجرى على عادته من ترْكِ الاحتفال له ولم يقمْ عن مجلسه، فجلس النقيب ساعةً ثم انصرف مُغضباً)). (ص١٦٩٤ – ١٦٩٥).

(٤) روى ابن سعيد في ترجمته: ((... وأخبرني... أنّ شميماً اجتاز بمدينة... كان بها صاحب ماردين، فبلغه نزوله في بستان هنالك، فركب كأنّه يتفقّد البستان، وغرضه الاجتماع به. فقيل له: إنّ السلطان قد دخل البستان. فقال: ومن منعه؟ ولم يقم له ولا لقيه. فصعب على صاحب ماردين ذلك، وأظهر أنّه جاء للفرجة، وانصرف ولم يجتمع به... ودسّ إليه من يؤذيه حتى خرج عن بلده)). (ابن سعيد الأندلسي، **الغصون اليانعة في** =

أن يتمادى فيدسّ إليه من الأخبار ما يخرجه من ميادين الفكر والأدب ليكون من جملة الحمقى والمغفلين.

وجملة القول: بفراغ الشميم من خطب ابن نباتة، وانصرافه لأسباب خاصّة عن معارضة ديوان المتنبي، القابل للمعارضة والدحض، تكون تلك القائمة الثلاثية قد تقلّصت بالفعل ليضحي كتاب الحريري وحيدًا بين كافة المؤلّفات العربية الجدير حقًّا بسؤال المعارضة، أو بالأحرى السؤال عن موانع معارضته. ويمكننا أن نؤوّل إلحاح ياقوت على إشهادنا بأنّ الشميم، وهو المهووس بمعارضة المؤلّفات الناجحة، لم يستثن غير مقامات الحريري من إمكانية مضاهاته ومعارضته، بأنّه كان يحاول أن يرينا صورة حيّة للبيانيين المتعجرفين وهم يخرّون سجّدًا لكتاب رجل نكرة لا يعرفون من أمره شيئًا.

= **محاسن شعراء المائة السابعة**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٥)، ١/ ٩ – ١١).

[٢]

الحريري في بغداد

١ – أديبٌ مغمورٌ في أنديةِ النّخب:

لا ريب في أنّ الحموي قد تفنّن في تصوير ذاك المشهد المهيب الذي انتزع فيه صاحب المقامات تلك السجدة من البيانين انتزاعًا. ففي مستهلّ ترجمة الحريري نقف على مناظرة غير متكافئة، تجمع كاتبًا مغمورًا بصفوة الصفوة من البيانيين "ذوي الفضل والبلاغة، وأهل الكفاية والبراعة". كما أنّها لا تجري في مكان محايد، بل في ميدان خصومه المفضّل أي تحت أنظار السلطة، وفي ديوانها: ((فقال له بعض الكتّاب: أيّ شيء تتعانى من صناعة الكتابة حتى نباحثك فيه؟ فأخذ بيده قلماً وقال: كلّ ما يتعلّق بهذا، وأشار إلى القلم، فقيل له: هذه دعوى عظيمة، فقال: امتحنوا تخبروا، فسأله كلّ واحد عمّا يعتقد في نفسه إتقانه من أنواع الكتابة، فأجاب عن الجميع أحسن جواب، وخاطبهم بأتمّ خطاب حتى بَهَرهم)). (٢٢٠٣ – ٢٢٠٤). أما ما دار في "**المناظرة القلميّة**"(●) من نقاشات فلم يُعنَ الحموي بتوثيق شيء منه، إلا أنّ إشارته إلى تنوّع الأسئلة وتعدّد مشاربها، ومن ثمّ نجاح الحريري في الإجابة عليها بأحسن جواب، توقفنا على وجه جديد تبدّى للحريري بفضل تلك المناظرة الناجحة، وهو وجه الأديب الذي ألـــمّ من كلّ علم بطرف. من هنا تولّدت آمال الحريري في الشهرة والمجد من بعد صبر طويل على البقاء في الظلّ، وسرعان ما ابتسم له الحظ؛ فما أن شَهِد له أدباء البلاط ببراعته في كافّة الفنون والآداب حتى قرّبه الوزير إليه؛ ((فأدخله عليه، ومال بكليّته إليه، وأكرمه وأدناه)). (ص ٢٢٠٤).

والأكيد أنّ انتقاله السريع من طبقة العوام المغمورين إلى طبقة الأدباء الأشراف قد لفت أنظار المؤرّخين، غير أنّهم لا يرجعون هذه النقلة النوعيّة إلى "الحظّ"، على

● نسبة إلى القلم الذي أُشهِر فيها.

كثرة ما استعملوا هذه الكلمة في حديثهم عنه، بل نراهم يشيدون بـــ"ذكاء" الحريري وفطنته. فهذا ابن الجوزي، مثلًا، يرى أنّ الحريري ((فاق أهل زمانه بالذكاء والفطنة))[1]. كما أظهر الحموي إعجابه الشديد بشخصيّة الحريري، وبما رزق من مواهب أدبية وعقلية، مؤكدًا أنّه ((كان غاية في الذكاء والفطنة)). (ص ٢٢٠٢). ولا زال الدرس التاريخي يؤكّد على خصلته اللافتة هذه، كقول حجازي: ((ولا تمدّنا المصادر بتفصيلات ذات قيمة عن حياته المبكّرة، إلا أنها تتفق على حدّة ذكائه..))[2]. و لم يكتف ضيف بما أكدته مدوّنتنا من أنّ الحريري ((كان ذكيًّا ذكاءً شديدًا))[3]. بل تطرّق إلى بعض الجوانب التي "استغلّ" ذكاءه فيها.

والظاهر أنّ كلّ هذه الشهادات في محلّها، ويكفي دليلًا عمليّا على ذلك تأمّل خطّته في تعريف أدباء بغداد بمؤهّلاته؛ فهو لم يكشف لهم كلّ أوراقه الرابحة، و لم يحدّثهم عن مشروعه الخاص (المقامات) في لحظات التعارف الأولى، رغم أنّه لم يتّجه لمناظرتهم إلا بعد فراغه من وضع أساسات هذا المشروع: ((.. أنّ الحريري لمـــّا صنع المقامة الحراميّة ... أصعد إلى بغداد..)). (ص ٢٢٠٣). وهكذا قرّر أن يخصّ صاحب الديوان وحده بالاطّلاع على مقامته، لكنّه جعل الإشارة إليها تأتي عرَضًا وكأنّها غير مقصودة لذاتها: ((فانتهى خبره إلى الوزير أنوشروان... فتحدّثا يوماً في مجلسه حتى انتهى الحديث إلى ذكر أبي زيد السروجي ..، وأورد ابن الحريري المقامة الحراميّة التي عملها فيه، فاستحسنها أنوشروان جدًّا.. وقال: ينبغي أن يضاف إلى هذه أمثالها..)). (ص٢٢٠٤).

وقيام الحريري بعرض مشروعه الأدبي على السلطة بدلًا من عرضها على

(١) نقلا عن: ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق: خليل شحادة، (بيروت: دار الجيل، ١٣٩٨) ١٢/ ١٩٢

(٢) حجازي، مرجع سابق، ص٨٨.

(٣) شوقي ضيف، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، ط٣، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠) ص٢٩٣.

أقرانه في أندية الأدب دليل على رغبته في أن يحظى نصّه الوليد بأعظم تشريف، كما يدلّ على وعيه الحضاري الذي أعانه على أن يجنِّب كتابه "المأخذ الفرعوني" الذي يلزم حاشية الملوك بأن يكون سجودها مرتبطًا بإذن مولاها، وهو ما تشير إليه الآية القرآنية: {قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}. (الأعراف: ١٢٣).

والواقع أنّ اللجوء إلى المعجم القرآني لتحليل هذه الواقعة التي عاملها المؤرخون معاملة البدهيات التي لا تستحقّ التوقف عندها، لا تغري به فقط الرؤى التي تذهب إلى أنّ ((الاحتكاك مع النص القرآنيّ والأحاديث النبوية الشريفة [بدا] واضحًا في المقامات، فالحريري يعمد إلى الاقتباسِ من كلام الله تعالى ورسوله الكريمِ ما يوضّح المعنى، ويضفي القيمةَ والشرف على الخطابِ))[1]. بقدر ما هي محاولة لمحاراة الحموي الذي أخذ ينهل من هذا المعجم في وصفه لوقع كتاب المقامات، لا على أدباء بغداد وحدها بل في كافة أرجاء المعمورة. ويبدو أنّ مفردة "الإعجاز" لا تأتي على لسانه في هذا المقام اعتباطًا، بل لعلّها المفردة الوحيدة القادرة على وصف حالة هذا الكتاب الذي أسكت كلّ نافث:

.. فإنّه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة، واتّسعت له الألفاظ، وانقادت له وفود البراعة حتى أخذ بأزِمّتها وملك رِبقتها، فاختار ألفاظها وأحسن نسقها، حتى لو ادّعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع في صدره ولا يردّ قوله، ولا يأتي بما يقاربها فضلاً عن أن يأتي بمثلها، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة وبُعدِ الصيت والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقّت وأكثر. (ص٢٢٠٥).

على أنّ هذه النهاية السعيدة لم تتحقّق فجأةً بين عشيّة وضحاها، بل بعد معاناة مريرة. وليس من قبيل الصدفة أن حذّرنا ياقوت من الأخبار الموهمة بأنّ المقامات أخذ صورته النهائية خلال مرحلتين متقاربتين: ((وذكر ابن الجوزي في تاريخه... أنّ ابن الحريري عرض المقامة الحرامية على أنوشروان بن خالد وزير السلطان فاستحسنها، وأمره أن يضيف إليها ما يشاكلها، فأتمّها خمسين مقامة)).

(١) الواسطي، مرجع سابق، ص١٣. (مقدّمة التحقيق).

(ص٢٢٠٣). أما هو فلم يثق في هذه الرواية التي تختزل مراحل عديدة لتأليف المقامات[١]، بل فضّل عليها رواية مؤرّخ "ثقة" لم يذكر اسمه، تجعله يستنتج أنّ تأليف المقامات مرّ بثلاث مراحل رئيسة:

أ – كتابة المقامة الحرامية: (وأورد ابن الحريري المقامة الحرامية.. فاستحسنها أنوشروان جدًّا..)

ب – إتمامها في ٤٠ مقامة: (ثم انحدر إلى البصرة فصنع أربعين مقامة، ثم أصعد إلى بغداد وهي معه.. وتداولها الناس).

ج – إضافة ١٠ مقامات ليجيء الكتاب في ٥٠ مقامة. فمتى اكتمل هذا العدد؟ وكيف؟

يغرينا استحضار الحموي نصوص معاصره المعروف بالفنجديهي (وهو أحد شرّاح المقامات المعتبرين) باستطلاع رأيه في هذه المسألة. فقد أُثر عن قوله: ((فأنشأ الحريري هذه المقامة.. فقيل له: هي أحسن من مقامات البديع، فأنشأ أربعين مقامة ثم استزادوه فكمّلها خمسين مقامة))[٢]. ويحسب لهذا الجواب وعيه بأنّ تأليف الحريري لمقاماته مرّ بثلاث مراحل، غير أنّه يسهم في طمس الظروف المحيطة بكلّ مرحلة، الأمر الذي يوحي بأنّ المقامات فصّلت على الطلب وبحسب مزاج الجمهور. وغنيّ عن القول إنّ هذا أبعد ما يكون عن سنن التأليف ومعاناة الكتابة، لا سيّما في هذا الفنّ الذي يعدّ ظاهرة اجتماعية فنيّة ديالكتيكية، لا ظاهرة لغويّة

(١) مما يجدر ذكره أنّ الإيحاء بأنّ عدد المقامات قفز مباشرةً من مقامة واحدة إلى خمسين يستند إلى شهادات أقرب المقرّبين إلى الحريري؛ فهذا أحد أبنائه يقول: ((..فعمل أبي المقامة الثامنة والأربعين المعروفة "بالحراميّة"... واشتهرت فبلغ خبرها الوزير... فلمّا وقف عليها أعجبته فأشار على والدي أن يضمّ إليها غيرها فأتمّها خمسين مقامة)). (ابن خلكان، مرجع سابق، ٦٤/٤).

(٢) الحريري، مرجع سابق، ٥٦٩.

ميكانيكيّة[1]. ولهذا وجدنا مرويّات المؤرّخين تشهد بأنّ كلّ التدابير التي اتّخذها الحريري كي يضمن لكتابه استقبالًا سلسًا لم تأت بالمردود المأمول؛ ذلك أنّ درجة الاستحسان القصوى[2] التي حقّقتها مقاماته على نحو فاجأ الجميع أحدثت شرخاً بين الكتاب وصاحبه. ومن هنا بدأت تتشكّل لأبي محمّد صورة أخرى غير صورة (الحريري – الأديب) التي شكّلتها المناظرة القلميّة.

٢ – شبهة الانتحال وآثارها المنسيّة:

قبل أن تنقلنا مدوّنتنا إلى الصورة التي تولّدت عن هذه الشبهة نريد أن نظلّ مع سابقتها قليلًا للتنبيه على أمرين، أوّلًا: أنّ صورة الحريري لم تكن واضحة في أذهان البغداديين عندما قدِم لمناظرتهم، ولعلّه أفاد من قلة معلوماتهم عنه في تشكيل صورته عندهم كأديب لامع. وثانيًا: أنّه قد يصعب علينا اليوم أن نعرف بالضبط المدّة التي عاشتها تلك الصورة الناصعة للحريري في أذهانهم، وإن كانت المؤشّرات توحي بأنّها امتدّت لبضعة أعوام. ومع أنّه بات معلومًا أنّ الحريري قضى تسعة أعوام في تأليف مقاماته (من ٤٩٥ه إلى ٥٠٤ه)[3]، إلا أنّ هذه المدة تظلّ مجملة دون تفصيل، وهو ما يسمح بسقوط أحداث مهمة، نقف على ملخّصها في القائمة التالية:

(١) ينظر: محمد خليل، المقامة المضيرية: توظيف الأدبي في الاجتماعي والسياسي، مجلة مشارف، ع٢٤، إبريل (٢٠٠٤) ص٢١٩.

(٢) كثيرة هي الشواهد الدالة على ذلك الاستحسان الفائق كل التوقعات، منها – إضافة إلى ما مرّ – قول ابن خلّكان: ((**ورزق الحظوة التامّة في عمله المقامات**)). (وفيات..، مرجع سابق، ٦٣/٤).

(٣) ينظر مثلًا: عيسى سابا، الحريري ومقاماته – ضمن: الحريري، **مقامات الحريري** (بيروت: دار الباز، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨)، ص٥.

المرحلة	تفريعاتها	الوقائع والأحداث	تاريخها
١	أ	كتابة المقامة الحرامية والذهاب إلى بغداد لمناظرة أدبائها (المناظرة القلمية)	٤٩٥هـ
	ب	عرض المقامة "الحرامية" على الوزير واستحسانه لها، وإشارته بالنسج على منوالها.	
	ج	رجوع الحريري إلى البصرة.	
٢	أ	ترقّب البغداديين لعودة الحريري بشغف.	؟
	ب	اكتمال الكتاب في ٤٠ مقامة والذهاب به إلى بغداد لعرضه على الوزير، ومن ثمّ تداول الناس له.	؟
	ج	نشوء تهمة الانتحال، وتغيّر صورة الحريري التي تشكلت بفضل المناظرة.	؟
	د	محاولة إنشاء مقامة جديدة لاستعادة تلك الصورة بلا جدوى.	٤٠ يومًا (في أي سنة؟)
٣	أ	تدهور صورة الحريري في بغداد إلى أدنى مستوياتها.	؟
	ب	مغادرة بغداد إلى البصرة.	؟
	ج	إنجاز عشر مقامات جديدة.	؟
	د	الإصعاد بها (أو إرسالها) إلى بغداد وانتهاء الأزمة.	٥٠٤هـ

وتَصوّر وقائع ظهور الكتاب بهذا الترتيب الوارد في القائمة أعلاه، وإن لم يطلعنا على تواريخ محدّدة لكثير من الأحداث، يسمح باستيعاب تلك الآثار المدويّة التي خلفتها صورة الحريري الأحدث (**منتحل المقامات**). ومن هنا نستطيع مراقبة مرويّات أرّخت لهذه المحنة الأدبية، ودلّتنا على دروسها وعِبرها قبل أن تبشّرنا بزوالها واندمال جروحها. والمقاطع التالية توالي الأضواء على وقائع المرحلتين الأخيرتين في تلك القائمة، بما أنّنا فرغنا فيما مضى من المرحلة الأولى.

٣ – في انتظار الغائب:

مما نفتقده في "معجم الأدباء" الإشارة إلى الواقعة ذات الرمز (٢ – أ) أي: (ترقّب البغداديين عودته). وهي ثغرة يسيرة سدّتها نصوص من ترجّح له أنّ ممّا يبرز معاناة الحريري أن نعلم مدى لهفة أدباء بغداد إلى عودته من البصرة: ((وحكى

بعض أهل الأَدب قال: لما قدم ابن الحريري إلى بغداد وكان الناس يهتفون بفضائله ويشرئبّون إِلى لِقَائِه وسماع كلامه..))[1]. وظاهرٌ أنّ هذه الشهادة لا تتعلّق بلقائه الأوّل بهم؛ إذ لم يكونوا قبل المناظرة يعرفون من فضائله شيئًا يستحقّ الهتاف أو يستدعي الترقّب.

ومن المؤسف أنّنا نجهل المدّة التي استغرقتها غيبة الحريري عن أنظار المتلهّفين للقياه، ولكن ما أن نجد مصادرنا تؤكّد بأنّ الحريري قد أنجز خلالها ٤٠ مقامة، شكّلت القسم الأكبر من ((المقامات الخمسين التي سارت في الدنيا سير الشمس، وتلقّاها الناس بالقبول، وعُقِــد على بلاغتها الخناصر))[2]، حتى نظنّها قد بلغت عدّة سنوات، غير أنّ فحص بقية الوقائع يسمح بإعادة النظر في هذا الاستنتاج.

٣ – العودة المظفّرة واندلاع الفتنة:

إذا استثنينا مغفلي التدرّج الثلاثيّ لظهور المقامات لاحظنا الإجماع على عودة الحريري من البصرة بكتاب يضمّ أربعين مقامة عدًّا. من هنا جاز نعتها بالعودة المظفّرة والنصر المبين. فتأليف ٣٩ مقامة دفعة واحدة ليس بالأمر الهيّن، لا سيّما أنّ كلّ واحدة منها تورث الحسرة في قلب كلّ من حاول أن "يأتي بما يقاربها فضلاً عن أن يأتي بمثلها". وإذا لم ننس أنّ تأليف مقامة واحدة فقط أكسب الحريري تلك المنزلة السامية في قلوب البغداديين، فلنا أن نتخيّل قدر الإبهار الناجم عن مضاعفة هذا الرقم أربعين ضعفًا، وما استتبع ذلك من حفاوة وإكرام، وانهيال للصِّلات العينيّة والنقديّة. والسؤال الآن: كيف تحوّلت أفراح الحريري تلك في غمضة عين إلى أتراح وأحزان؟ وما الذي استنــزله من مقاعد الأشراف المقرّبين ليجاور المشبوهين على مقاعد الخزي والعار؟

يسرد ابن خلّكان تهمة الانتحال على هذا النحو: ((إنّ الحريري لما عمل المقامات كان قد عملها أربعين مقامة، وحملها من البصرة إلى بغداد وادّعاها، فلم

(١) الصفدي، مرجع سابق، ٢٤/ ٩٩ – ١٠٠.

(٢) الخطيب، مرجع سابق، ٢١/ ١٦٦.

يصدّقه في ذلك جماعة من أدباء بغداد، وقالوا: إنّها ليست من تصنيفه، بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت أوراقه إليه فادّعاها..))[1]. ولكنّه لا يشير إلى مبعث تلك التهمة التي نغصّت على الحريري طيب مقامه في بغداد، أما الحموي فيعيدها إلى باعث وحيد هو الحسد. (ص٢٢٠٤). وكأنّه يستند إلى فلسفته الخاصة لواحدة من أهم العوائق الثقافية التي تترصّد الكتب الفائقة الجودة، وهي أنّه لا بّد أن ((يأتيه النقص من جهة زيادة فضله، وأن يقعد بقيام جَدّه عِظم خطره ونبله)). (ص١٤).

وأغلب الظن أنّ تعليلات الحموي الغيبية هذه، بما فيها الحسد الذي أعاد إليه انبعاث تلك التهمة الأدبية، لم تأت فقط من انشغاله الدائم بالتفكير في مستقبل معجمه، بقدر ما هي محاولة لسدّ الفراغات الناجمة عن بقاء عديد الأسئلة حول هذا الموضوع معلّقة بلا إجابات مقنعة، وستأتي تباعًا.

٤ – الحريري رهن الاختبار ثانيةً:

ألمعت الفقرة (٢ – ج) إلى اهتزاز صورة الحريري إثر محاولاته المهدرة لإثبات حقّه في نسبة كتاب المقامات إليه وحده، وسعيه دون جدوى إلى البرهنة على أنّ قلمه هو الذي صاغ المقامات الأربعين التي ضمنها كتابه. ولنسجّل هنا أنّ ثمّة تفاوتًا ملحوظًا بين المرويات المتعلّقة بالمواقف التي تلي ظهور شائعة الانتحال، وهو ما يعكس بطبيعة الحال تباينًا في وجهات النظر إلى الحريري وأزمته، لذا لم نجد الحريري في رواية بن خلّكان صاحب المبادرة في الدفاع عن نفسه، بقدر ما تبقيه ماثلًا في قفص الاتهام لا يحرّك ساكنًا. فمع أنّا قد رأيناه في "المناظرة القلمية" يشهر سلاحه في وجه خصومه ويدعوهم إلى النّـــزال قائلًا: "**امتحنوا تخبروا**"، إلا أنّه هنا "يُستدعى" للتحقيق معه في الديوان نفسه الذي كان يجلس فيه معزّزًا مكرّمًا، قبل أن يدفعه صاحب الديوان إلى خوض الاختبار دفعًا: ((فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته، فقال: أنا رجل منشئ، فاقترح عليه إنشاء رسالة في واقعة

(١) ابن خلكان، مرجع سابق، ٦٣/٤.

عيّنها، فانفرد في ناحية من الديوان، وأخذ الدواة والورقة ومكث زمانًا كثيرًا فلم يفتح الله سبحانه عليه بشيء من ذلك، فقام وهو خجلان))[1].

وواضح هنا أنّ رواية ابن خلّكان تسند الفعل إلى فاعله بلا مواربة، أمّا الحموي (ص٢٢٠٤) فيحيل على "المختبِر" بصيغ مبهمة: ((وقالوا: هذه من صناعة رجل كان استضاف به ومات عنده فادّعاها لنفسه، وقال آخرون... فإن كان صادقًا في أنّها من عمله فليصنع مقامة أخرى)). كما نسمع هنا صوت "المختَبر" متحدّيًا: ((فقال: نعم، سأصنع)). أمّا مقرّ الاختبار فقد أخذته رواية المعجم بعيدًا عن الديوان: ((..وجلس في مترله ببغداد أربعين يومًا فلم يتهيّأ له ترتيب كلمتين والجمع بين لفظتين، وسوّد كثيرًا من الكاغد فلم يصنع شيئًا)).

وتشكّل المدّة التي قضاها الحريري في محاولة تأليف "المقامة الاختبارية" أحدَ مظاهر التفاوت في عرض وقائع ذلك الاختبار العسير، فابن خلّكان – كما رأينا – يستعمل عبارة موهمة بطول تلك المدّة: (ومكث زمانًا كثيرًا). أمّا الحموي فهي عنده أربعين يومًا بالتحديد. قد يكون هذا الرقم غير مقصود لذاته بل يراد منه أنّ الرجل أعطي فرصة كافية لإنجاز مقامة النجاة من التهمة وإثبات الجدارة قبل أن تبوء محاولته بالفشل، إلا أنّ استعمال ياقوت لرقم محدّد بدلًا من وصف المدة المذكورة وصفًا عامًّا كما فعل غيره، يسمح بتأويل سنعرّج عليه قريبًا.

٥ – مشهد الخذلان ومغادرة الخجلان:

تعدّدت أساليب واصفي هزيمة الحريري وفشله الذريع في كتابة مقامة تحفظ ماء وجهه بعد انتشار الشائعة، فتمايزت رواياتهم ببعض ما يمكن الإلمام به سريعًا.

مما يحسب لابن خلّكان أنّه لا يبقي خصوم الحريري كالأشباح نسمع بهم ولا نراهم، بل يحدّد بعضهم بالاسم: ((وكان في جملة من أنكر دعواه في عملها أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر – المتقدم ذكره))[2]. وكان قد عرّف به بقوله:

(١) المرجع السابق، ٤/ ٦٥ – ٦٦.

(٢) المرجع نفسه.

((شاعر ظريف حسن المديح كثير الهجاء، مدح الخلفاء فمن دونهم من أرباب المراتب، وجاب البلاد ولقي رؤساها وأكابرها))[1]. وممن يرد اسمه في هذا السياق أيضًا: ((ابن جكينا الحريمي البغدادي الشاعر المشهور))[2]. ويبدو أنّ التداخل العميق بين أدوار هذين الشاعرين في الترويج لشائعة الانتحال جعل المؤرّخين ينسبون لهذا من الأشعار ما يعتقد أنّه لذاك[3]. والواقع أنّ سعي هذه الطبقة من الشعراء المدّاحين إلى إسقاط كتاب الحريري أمر يستحقّ التفكير. وعلى كلّ فقد استغلّت هذه الفئة من الخواصّ موهبتها الفنيّة لتخليد شماتتها بالحريري، كهذين البيتين اللذين انتشرا في المصادر التاريخية كالنار في الهشيم:

شيخٌ لنا من ربيعة الفرَس ... ينتف عثنونه من الهوسِ
أنطقه الله بالمشان وقد ... ألجمه في العراق بالخرسِ

ومن الطبيعي ألّا يخلي الحموي كتابه من هذا الشعر الذي يعبّـــر عن موقف الخواص من مأساة الحريري، فضلا عن كونه دليلًا على بعض عِلل (منتحل المقامات) النفسيّة والاجتماعيّة، فقد كان الرجل ((مع هذا الفضل قذرًا في نفسه وصورته ولبسته وهيئته قصيرًا دميمًا بخيلًا مبتلىً بنتف لحيته)). (ص٢٢٠٢).

وهكذا عندما تشكّل الشائعات صورة الحريري الأخيرة نجد مرويّات المؤرّخين تدفع به بعيدًا عن عوالم الخواص، حتّى أنّ الحموي الذي عُرف عنه أنّه لا يقنع باللفظ السهل أو الجزل المعبّر في يسر وسلاسة[4]، لم يجد من المفردات ما يسعفه في رسم مشهد الهزيمة ومغادرة الحريري لبغداد بلا وداع ولا إكرام، إلا عند العامّة وفي معجمهم الساذج: ((فعاد إلى البصرة والناس يقعون فيه ويعيطون (وفي

(١) المرجع نفسه، ٣ / ٣٨٩.
(٢) المرجع نفسه، ٤ / ٦٥.
(٣) عن اختلافهم في نسبة الأشعار المتعلقة بالواقعة وأسباب ورودها، ينظر مثلا: الخطيب، مرجع سابق، ٢١/١٦٦؟
(٤) ينظر: حجازي، مرجع سابق، ص٨٩.

نسخة: يغيطون) في قفاه كما تقول العامّة)). (ص٢٢٠٤).

من الواضح إذن أنّ أروقة الأدب في عاصمة الخلافة لم تعد ترحّب بالحريري بمجرّد أن أصبح أحد المشبوهين والمطعون في ذممهم، فسعت إلى طرده منها بكل الوسائل[١]. من هنا لم يجد بدّا من العودة إلى دياره "وهو خجلان". وهو وصف يجسّد الفروق الشاسعة بين رجوعه الأول والأخير؛ فقد ودّع بغداد في المرة الأولى واعدًا أهلها بأن ينسج لهم على غرار تلك المقامة التي استحسنوها القدر الذي يرضيهم ويشبع نهمهم لهذا الفنّ، ولهذا ظلوا يترقّبون عودته بفارغ الصبر، وربما طال انتظارهم في تلك المرّة. أما المغادرة الأخيرة فلا تشبه الأولى في شيء؛ إذ لا وعد، ولا ترقّب، ولا انتظار.. وهل يجرؤ العاجز عن إنشاء جملة واحدة من كلمتين على إقناع الناس بكتابة صفحات وصفحات في قادم الأيّام؟ وكيف يعِدهم بالجديد وهو يعلم أنّه لم يصنع شيئًا منذ أن انتصب أمامهم قائلًا: "نعم، سأصنع"؟

٦ – المقامات العشر وكراماتها:

كم لبثت صورة (الحريري – المنتحل) ماثلةً في أذهان البغداديين؟ ومتى تغيّرت تلك الصورة المشبوهة ليشرق وجهه من جديد بوصفه (صاحب المقامات)؟ لا شكّ في أنّ الاسترسال في أسئلة من هذا القبيل لا مبرّر له؛ فـ"معجم الأدباء" كان حاسمًا في هذا الصدد: ((فما غاب عنهم إلّا مديدةً حتى عمل عشر مقامات وأضافها إلى تلك، وأصعد بها إلى بغداد، فحينئذ بانَ فضله وعلموا أنّها من عمله)). (ص٢٢٠٤).

والملاحظ هنا أن الحمويّ لا يستشكل مسألة انتهاء الأزمة على هذا النحو الهادئ، فقد أغلق الموضوع بكلامه هذا و لم يعد إليه مرّة أخرى. هذا مع أنّه لا بدّ

(١) وهذا الموقف الطارد ربما كان سببًا في تولّد المرويات التي تشير إلى هيئته الرثة وبخله الشديد وما إلى ذلك. ومنها: ((ويحكى أنّه كان دميمًا قبيح المنظر...)). (ابن خلكان، مرجع سابق، ٣/٤٩٥). ((وقيل: كان عفشًا زريّ اللبـــاس فيـــه بخل...)). (الذهبي، مرجع سابق، ١٩/ ٤٦٥).

أن يكون قد سأل نفسه: كيف استطاع الحريري في تلك "المديدة" أن يؤلّف عشر مقامات كاملة مع أنّه لم يفلح في كتابة مقامة واحدة خلال ٤٠ ليلة كرّسها لهذا الغرض وحده؟ وهنا تتمايز المرويّات؛ فمن جعل "الديوان" مَقرًّا للاختبار الثاني وفّر للحريري ذريعة يتخلّص بها: ((فلما رجع إلى بلده عمل عشر مقامات أخر وسيّرهن، واعتذر من عيّه وحصره في الديوان بما لحقه من المهابة))[1]. أما اختيار منزل الحريري في بغداد ليكون شاهدًا على واقعة العقم المخجلة فلم يبقِ للحريري من الأعذار سوى "تجمّع الخاطر" الذي لا يتيسر لكاتب المقامات إلا في تلك المدينة التي أسرته وجعلته في حنين دائم إلى ((عيان البصرة، حنين المظلوم إلى النصرة))[2]. وهل ننسى أنّ وعده الأوّل للوزير قد نصّ على هذا الشرط: ((أفعل ذلك مع رجوعي إلى البصرة وتجمّع خاطري بها))؟ (ص ٢٢٠٤).

والواقع أنّ المقام يضيق عن تتبّع بقيّة الفوارق بين النصوص التي تتعلّق بانتهاء أزمة الحريري إلا أنّنا لا نستطيع غضّ الطرف عن اختلافهم في كيفيّة إغلاق هذا الملف. فبعضهم يشير إلى أنّ الحريري "سيّر" المقامات العشر إلى بغداد، بما يفهم منه أنّه لم يتحرّك من دياره البصريّة، أمّا ياقوت فينصّ على أنّه "أصعد بها إلى بغداد". هذا ملحظ أول، أمّا الثاني فيتجلّى في أنّ "الوَفَيات" يحتفظ للحريري بصورته "كمنتحل" لتعيش بجانب أختها "صاحب المقامات"، إذ ليس فيه ما يدلّ على مواقف الأوساط البغدادية من المقامات العشر الأخيرة، في حين يبدّد "معجم الأدباء" الصورة المشوّهة للحريري ويزيحها عن الأذهان بجرّة قلم: ((فحينئذ بانَ فضله وعلموا أنّها من عمله)). (ص٢٢٠٤).

والحقّ أنّ شخصيّة "منتحل المقامات" قد اندثرت سريعًا، بل وئدت في مهدها، حتى لو لم ينصّ المؤرّخون على ذلك صراحة؛ ذلك أنّ أحدًا لم يعد يشكّ في أنّ الحريري هو صاحب المقامات ومؤلّفها. أمّا كيف تشكّل هذا اليقين

(١) ابن خلكان، مرجع سابق، ٤ / ٦٦

(٢) الحريري، مرجع سابق، ص٥٧٦.

الجمعيّ، فمن الصعب الاقتناع بأن الفضل في ذلك يعود إلى المقامات العشر الأخيرة بوصفها الدليل الساطع والبرهان الحاسم على براءة الحريري؛ ذلك أنّ دعوى الخصوم لا تسقط بإظهار المزيد من المقامات المنجزة في غفلة من المراقبين؛ لأنّه من الجائز عقلاً أنّ أوراق المغربيّ المجهول تضمّنت مقامات أكثر مما أظهره الحريري وفق ذلك النسق الذي فرضته الأحداث: [(١ + ٣٩) + ١٠]. وليس هناك – فيما يظهر – ما يقدح في الفرض القائل: إنّ من يقدم على هذه المغامرة المصيريّة لابدّ أنّ يكون واعيًا بما ينتظره من مخاطر، فيحتاط لنفسه بأن يظهرها منجّمة لتواكب الوقائع ومجريات الأمور؛ وهل يستغرب ذلك ممن أجمع دارسوه على أنّ الدهاء والمكر والفطنة من أبرز خصاله وشمائله؟

لا نستطيع أن ننكر أنّ مدوّنتنا التاريخية توفّر معطيات كافية للإجابة على السؤال الذي تبلور آنفًا، وهو: كيف ترسّخ اليقين لدى عامّة الناس وخاصّتهم بأنّ الحريري لم ينتحل المقامات، وأنه هو صاحبها الوحيد بلا منازع؟ ولكن، بما أنّها دأبت على الاكتفاء بنثر المعالم على الطريق فلابد من معاودة مساءلتها عن تهمة الانتحال: أهي مقدّمة لكلّ ما حصل للحريري في زيارته الثانية لبغداد أم نتيجته؟ هذا ما سيحاول المبحث التالي التحقّق منه.

٧ – فتوحات الليالي العقم:

وصفت كتب التراجم الليالي الأربعين التي قضاها الحريري في بغداد بالعقم والفقر، وعدّتها فترة ساقطة من حياته الأدبية ومسيرته العلمية(•). غير أنّنا نرجّح أنّ إعادة ترتيب الأحداث، ابتداءً من لقاء الحريري بمترقّبي عودته، قد يفضي بنا إلى استنتاج لا يقوم على الظاهر وحده.

من الثابت أنّ العودة المظفّرة زفّت إلى البغداديين كتابًا يضمّ أربعين مقامة

• وهو فحوى قولهم: "..ومكث زمانًا كثيرًا فلم يفتح الله سبحانه عليه ..". وقولهم: "..وجلس في منزله ببغداد أربعين يومًا فلم يتهيّأ له ترتيب كلمتين والجمع بين لفظتين، وسوّد كثيرًا من الكاغد فلم يصنع شيئًا".

بالتمام والكمال. وظاهر أنّ هذا العدد كان يمثّل الكتاب مبيّضًا، مكتملًا، صالحاً للنشر والتداول. لولا ذلك لحجبه مؤلفه عن أنظار العموم، ولحصر الاطلاع عليه في أضيق نطاق، إلا أنّنا رأينا مدوّنتنا تشهد بأن الكتاب شرّق وغرّب وتداوله الناس ابتداءً من تلك اللحظة(١). ويبدو أنّ الأمور أخذت مجراها بعد ذلك على نحو طبيعيّ وهادئ، فقضى الحريري أيّامه ولياليه البغدادية متلذّذًا بجلسات الأنس التي تحتضنها أندية الوزراء والأكابر، وفي تلك الأثناء كان يمارس الوظيفة التقليدية للأديب الشريف، فيلبّي رغبات السمّار الآنيّة بأن يرتجل لهم ما يبهرهم به من الجمل المسجوعة الرشيقة والأشعار الظريفة "في الحال"(٢)، و"من غير رويّة"(٣).

ويلفت النظر في هذا الإطار التفاعلي المباشر بين الأديب وجمهوره تأكيدهم على أنّ الحريري لم يتأخّر عن الاستجابة لأيّ طلب من هذا النوع، فأخباره عند ياقوت تظهر مسارعته إلى تلبية مطالب جلّاسه بلا تردّد ولا توقّف، ومنها خبران أُسنِد أوّلهما إلى ((أبي الفضل جابر بن زهير، قال: حضرنا مع ابن الحريري في دعوة ... وكان هناك مغنّ يعرف بحمد المصري وكان غاية في امتداد الصوت

(١) قيل في انتشار المقامات الحريرية: ((لم تكد تصدر منها النسخة الأولى في بغداد حتى أقبل الورّاقون على كتابتها، والعلماء على قراءتها ..)). (الشريشي، مرجع سابق، ١/٥ – مقدمة التحقيق)

(٢) روى الصفدي في ترجمة الحريري: ((وَكَانَ يَوْمًا جَالِسًا بِبَعْض مجَالِس الأكابر فَجرى ذكر قول البستي فِي رجل بخيل شرير: "إن لم يكن لنا طمع فِي دَرك دَرك فأعفنا من شرك شرك"، فَلم يبْق أحد إِلَّا استحسنها وَأقرّ بالْعَجزِ عَن الْإِتْيَان بِمِثْلِهَا. فَقَالَ ابْن الحريري فِي الحـــال: "إن لم تدننا من مبارك مبارّك فأبعدنا من معارك معارّك")). (الصفدي، مرجع سابق، ٢٤ /١٠٠).

(٣) وفي رواية الفيروزآبادى للخبر السابق نفسه تأكيد على عنصر الارتجال وسرعة البديهة: ((.. فقال أبو محمد في الحال من غير رويّة: إن لم تدننا...)). (مجد الدين الفيروزآبادى، **البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة** (بيروت: دار سعد الدين، ١٤٢١هـــ- ٢٠٠٠م) ص٢٣٤).

وطيب النغمة فغنّى... فطرب الحاضرون وسألوا ابن الحريري أن يزيد فيها شيئاً فقال: قل لمن عذّب قلبي ... (نظم) فاستحسنها الجماعة وأقسموا على المغنّي ألا يغنّيهم غيرها، فمضى يومهم أجمع بهذه الأبيات)). (ص٢٢٠٦ - ٢٢٠٧). وأسند ثانيهما إلى ابن التلميذ الكاتب، الذي روى: ((.. وكانت بيني وبينه مكاتبة قديمة ... عند ابتدائه حمل المقامات التي أنشأ، ولما وقع الاجتماع به في سنة أربع وخمسمائة ببغداد وسماعها منه عدة دفعات، جاريته وسألته أن ينظم في النحو مختصراً يحفظه المبتدئون، فشرع في نظم هذه الأرجوزة، وأملى عليّ منها أبواباً يسيرة..)). (ص٢٢١٢). من هنا استنتج بعضهم (الفنجديهي مثلًا) أنّ تنامي مقامات الحريري على فترات إلى أن بلغت الخمسين كان من هذا الباب: "... ثم استزادوه فكمّلها خمسين مقامة". وأغلب الظنّ أنّ العكس هو الذي حصل؛ وأنّ خيبة أمل هذا الجمهور في الحريري في تلك المناسبة الفريدة هي التي أوصلت المقامات فيما بعد إلى هذا الرقم الأخير.

عَلِمنا أنّ الحريري لم يستجب لمن سأله إنشاء مقامة في موضوع عيّنه له، ولتضخيم جرم الأديب نطق هذا الجمهور بلسان الوزير وتجسّد في شخصه(•). ومن الطبيعي أن يشكّل هذا الموقف الاستثنائي مفاجأة محيّرة لدى طائفة ممن عاينوه أو سمعوا به. فليس من عادة الحريري البخل بنتاج قريحته المتّقدة على أحد، بل ربّما بدا لذاك الجمهور الذي رسخ في ذهنه أنّ الإمتاع والمؤانسة هي وظيفة الأدب الرئيسة – القائمة أصلًا على الارتجال والبديهة الحاضرة عند الطلب – بأنّه لا يحقّ لأديبهم الامتناع عن تلبية رغباتهم. ومما يُضعف موقفه ويبدّد أعذاره أنّ سلفه الهمذاني أنشأ عشرات المقامات وفق هذا النمط الشفاهيّ الذي شقّ على صاحبهم أو لم يرق له. ولعلّ تلك المقامات التي كان البديع يرتجلها في مجالسه بناء على مقترحات الحضور هي التي قطعت الطريق على أي شكوك قد تثار حول عمله، لكنّنا لا نستبعد أن تعطّش جمهور الحريري للمزيد من المتعة والأنس قد غيّب عن

• مرّ بنا قول ابن خلكان: فاستدعاه الوزير إلى الديوان ... إلخ.

أذهانهم طبيعة التحوّلات التي تراكمت في الخفاء خلال قرنين من الزمان يباعدان بينهم وبين مؤسس فنّ المقامات وجمهوره. ومن ثم، يغدو من المنتظر أن يحتجب عنهم مغزى إشارة الحريري إلى قلمه الذي أشهره في المناظرة المذكورة، وأن تغيب عنهم أيضًا دلالة تعريفه لصناعته بأنه "رجل منشئ"[(١)].

وعلى كلّ، كان لا بدّ لهذا الجمهور المحبط من إيجاد تفسير يعيد واقعة الرفض الغريبة تلك إلى عالم يألفه ويطمئنّ إليه، من هنا جاءت مقولة الانتحال؛ لتريح الأذهان الحائرة أوّلًا، ولتضغط على الحريري كيما ينهي اعتصامه، ثانيًا. ولنتذكّر هنا الأثر الذي تولّد في نفس الشاعر الذي صدمه الشميم الحلّي بقوله: "إنّي أرفع هذا الشعر عن طبقتك، فإن كنت في دعواك سابقًا صادقًا فقل في معناه الآن شيئًا آخر". فقد رأيناه يبدع، بعد تفكير قليل – ولعلّ هذا ما أبقاه إلى الأبد في سجل المغمورين – بيتين عدّهما الشميم من مواضع سجدات الشعر، وهو أعرف الناس بها كما زعم. لينهي بذلك شبهة الانتحال ويخمدها من فوره.

وإذا عدنا إلى الحريري وتهمته التي نظنّها بدأت ساذجة كتلك التي اختلقها الشميم ليختبر بها شاعرًا يجهل موهبته، فينبغي ألا نغتـــرّ بتآويل المؤرّخين وتضخيمهم للأمور، كقول الحموي: ((واتّهمه من يحسده بأن قال: ليست هذه من عمله؛ لأنّها لا تناسب فضائله ولا تشاكل ألفاظه...)). (ص٢٢٠٤). فإن كان المقصود بـــ"فضائل" الحريري: أسلوبه في الكتابة؛ فمتى أتيح لصاحب هذا الرأي التمرّس بفضائل كاتب كان وقتها مغمورًا يُساءل عن صنعته أينما حلّ، وليس له في أيدي الناس مصنّفات تمكّن من التعّرف على أسلوبه المتفرّد[(٢)]؟ لا شكّ

(١) والمنشئ في عرف صاحب المقامات: "جهينة الأخبار، وحقيبة الأسرار، ونجيّ العظماء وكبير الندماء، وقلمه لسان الدولة وفارس الجولة..". (الحريري، مرجع سابق، ص٢١٣).

(٢) لم يجد دارسو الحريري صعوبة في ترتيب مؤلّفاته تريبًا تاريخيًّا، فأكدوا أنّ أهم ما يعرف له منها قد ألّف بعد المقامات. (ينظر مثلًا: حجازي، مرجع سابق، ص٩٠).

في أنّ هذا الشرح الذي ساقه المؤرّخ هنا ليس أكثر من تأويل "منطقي" متأخّر لذلك التعليل "الشعبي" المرتجل الذي أراح العقول من مشقة التأمّل في مجريات الواقع الجديد.

يمكن القول إذن إنّ خصومة الحريري ابتدأت مع "العوام"، غير أنّ الأمر سرعان ما تطوّر حين التقط الشعر هذه الواقعة وصهرها في صور شعريّة، وعندها لم تعد الخصومة مع رجال يسهل إشباع شهيّتهم للفنّ بكلمتين من هنا أو من هناك، بل استحالت مناظرة جديدة مع "الخواص"، وتحديدًا خواص الديوان البغدادي، نخبة بيانيي الدولة وعصارتهم. وهكذا أصبحت مجابهة الخصوم الجدد أمرًا لا معدّى عنه ولا مهرب منه. ويبدو أنّ مدّة الأربعين يومًا التي اختلى فيها بنفسه، طوعًا أو كرهًا، قد وفّرت له الوقت الكافي للتفكير في ردّ لا يرتقي فقط إلى مستوى أولئك الخصوم ذوي الألسنة الحداد، بل يجرّهم إلى تلك "السجدة البيانية" التي هم أعرف الناس بها.

أمّا كيف أرغمهم على الاستسلام فبتخطيط محكم استهلّه بجعل القسم الأخير من الكتاب لا يزيد عن عشر مقامات ولا يقلّ عنها. وهذا الرقم يذكّرنا بملاحظتنا استعمال ياقوت لأرقام محدّدة بدلًا من الأوصاف التقديرية العامّة، ومعلوم أنّ المدوّنة التاريخيّة كثيرًا ما عمدت إلى "المجازفة"[1] في استعمال الأرقام، غير أنّ المعجم الإعجازي الذي اُغتـــرِف منه لوصف مشكلة كتاب المقامات الحريريّة يكسب استعمالها في هذا الصدد دلالات خاصة. واللافت أنّ الروايات التي تتعلّق بذلك الانتصار المؤزّر لم تتفاوت هذه المرّة في تقدير عدد المقامات التي برهنت على كونه المؤلّف الحقيقي.

ولا شكّ في أنّ الحريري كان في موقف صعب للغاية حين وجد نفسه مهدّدًا بخسران لقب "صاحب المقامات" الذي يقاوم به سنّة الفناء وخمول الذّكر.

(١) حبيب الزيات، **المجازفة بالأرقام في التاريخ**، مجلة المشرق، بيروت، ع ٣، ١ مارس (١٩٣٣) ص ص: ١٦١– ١٦٧.

والأرجح أنّ تفكيره هداه إلى التوسّل بالنص القرآني رجاء إخماد الفتنة وعودة الأمور إلى الهدوء والسكينة. ولهذا لم يتسرّع في الردّ على متّهميه بإنشاء مقامة أو اثنتين بل فضّل أن يجعلها عشرًا، وربما كان هذا بوحي من الآية الكريمة: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}.(هود: ١٣).

ما يكسب هذا الاستنتاج وجاهته أنّ هذه الآية، وإن كان لها سياقها وحمولتها الدلالية الخاصّة، تقدّم للحريري حجّة ملزمة لخصومه وهي: إن كان كما تقولون إنّي اختلقته وافتريته، فإنّكم مثلي من العَرب، ولساني مثل لسانكم، وكلامي مثل كلامكم فاستعينوا بمن شئتم من الخلق وأتوا بعشر من مثلها "مفتريات". لكنّنا إذا تذكّرنا أنّ إظهار الحريري للمقامات الجديدة لا يبطل الدعوى القائلة بأنّها كانت من ضمن الأوراق التي استولى عليها وادّعاها وإنّما ادّخرها لوقت حاجتها، ترجّح لنا أنّ إقدام منافسيه على "غسل" كل محاولاتهم بمحض إرادتهم؛ اعترافًا بفضله وتأكيدًا على رئاسته هذا الفنّ، إنّما هو متعلّق بمسلّمة بيانيّة تبلورت معالمها في ذلك العصر، مفادها: أنّ النظم وحده هو سرّ الإعجاز. فكيف استثمر الحريري تلك المسلّمة؟

٨ – التشكيل المعجز: الثأر وردّ الاعتبار

عندما نتصفّح اليوم كتاب المقامات لا نجده يتصدّر بالمقامة "الحراميّة" التي قال عنها المصنّف: ((هذه أوّل مقامة أنشأتها))[١]. وبدلًا من ذلك نراها الثامنة والأربعين. وهذا أكبر دليل على أنّ تلك "المديدة" التي قضاها الحريري في البصرة لم تكن فقط مخصصّة لإنجاز المقامات العشر، بل أيضًا لإعادة ترتيب كتابه من جديد، ممّا يعني أنّ هذا النسق الجديد للمقامات ربما كان متأثّرًا بالوقائع والأحداث التي سبقته ومهّدت له. والحقّ أنّ هذه الخلاصة تسندها جهود ادّعت معرفة المقامات العشر الأخيرة بالاسم، اعتمادًا، فيما يبدو، على قرائن أسلوبيّة: ((نستطيع

(١) الحريري، مرجع سابق، ص٥٥٧.

أن نقول: إنّ المقامات: القهقريّة، والشتويّة، والإسكندريّة، والمرويّة، والحجريّة، والدمشقيّة، والطيبيّة، والرازيّة، والصعديّة، والحلبيّة، هي المقامات التي كُتبت بعد التهمة التي بُلي بها الحريري، وهي التشكّيك في بلاغته ومقدرته الأدبيّة، وهو بلا شكّ موقف نفسيّ مؤلم))[1]. فإذا قبلنا هذه الدعوى على علّاتها أمكننا رؤية مواضع تلك المقامات من الكتاب وترتيبها النهائي فيه على هذا النحو:

المقـــــــامـــــــة	رقـــــمـــها
القهقريّة	**١٧**
الشتويّة (وتسمّى اللغزية)	**٤٤**
الإسكندريّة (أو الإسكندرانيّة)	**٩**
المرويّة	**٣٨**
الحجريّة	**٤٧**
الدمشقيّة	**١٢**
الطيبية (أو الحريّة)	**٣٢**
الرازيّة	**٢١**
الصعديّة	**٣٧**
الحلبيّة	**٤٦**

وواضح من انتشار المقامات الجديدة على امتداد الكتاب، إلى جانب ما ذكرناه عن تحريك المقامة الأولى بعيدًا جدًّا عن موقعها الأصلي، أنّ النسخ القديمة ذوات الأربعين مقامة لم تعد لها قيمة تدرأ المياه الدافئة عن كاغدها الثمين. وهذا دليل إضافيّ على أنّ دعوى الانتحال لم تبطل تلقائيًا بمجرّد ارتفاع عدد المقامات إلى الخمسين كما يفهم من بعض مقالاتهم، والأقرب أنّ يقال: إنّ خصوم الحريري قطعوا ألسنتهم عنه واعترفوا له بفضله، مسلّمين بحقّه في الكتاب عندما فاجأهم في تلك "المديدة" اليسيرة بنسخة مختلفة تمامًا عن تلك التي تداولوها منبهرين منها،

(١) أحمد سليم الزول، **مظاهر القصدية الكتابية في مقامات الحريري**، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، مج٢٦، ع١، (٢٠١٨) ص٢٥٦. وينظر أيضًا: إقبال المطيري، **الشعر في مقامات الحريري**، (الكويت: مكتبة آفاق، ٢٠١٤) ص٩٦.

ومبعدين كل البعد أن يكون هو صاحبها.

والسؤال الآن: إذا كان هذا التشكيل الجديد للكتاب هو الذي أخفى صورة (منتحل المقامات)، فكيف استعاد الحريري صورته المثلى بوصفه (صاحبَ المقامات)؟ الواقع أنّ هذا السؤال يكشف عن دور جديد للآية التي رجّحنا أن إيحاءاتها كانت وراء تحديد المقامات الجديدة بعشر مقامات. فلو أراد الحريري أن يزيح صورة المنتحل عن وجهه لاكتفى بإنشاء المقامات العشر الجديدة. ولكن بما أنّه تظاهر[1] بالعيّ أمام خصومه ليفاجئهم بُعيد ذلك بكتاب يعرفون بعضه ويرون بعضه الآخر لأول مرة، فقد دلّ على أنّ غايته تتجاوز إثبات ملكيّة النص المشكوك فيه إلى ترسيخ صورته النموذجية كاتبًا لا يبارى، وكأنّه بذلك يجاوز ظاهر الآية إلى تأويلها الذي يذهب إلى أنّ الأمر فيها أمر تعجيز، وقد وقع التحدّي بإتيانهم بما يماثل سور القرآن، أي يشابهه في البلاغة وحسن النظم[2]. من هنا كانت إعادة ترتيب المقامات على هذا النحو المختلف كليّا عن النسخة الأقدم كالدليل على مدى الإمعان في تشكيل النظم الداخلي للكتاب، أو "إحسان النسق" على حد تعبير الحموي (ص٢٢٠٥). وهو ما دعاه بروكلمان "التصوير الساحر"[3]. وهذا ما جعل مقاماته ترتفع عن مقام المتحدّي والمعارض على السواء.

هكذا دلّنا الحريري على نوعيّة خصومه وطبيعة ردّه عليهم، فامتناعه عن

(١) امتناع الحريري عن كتابة تلك المقامة عامدًا متظاهرًا بالعجز أمر يؤكّده هذا الخبر: ((ولما بلغ الحريري ما قاله الناس، عمل العشر الأخر، تمّم بها خمسين مقامة، واعتذر عن أمر الكتاب الذي لم يكتبه بالديوان، وقال: كرهت كتابته؛ لئلا ألتزم بالمقام في بغداد، وأنسب في خدمة السلطان، وتضيع عليّ أموالي التي ثمّرها بالبصرة، وأبعد عن أهلي، ويتشعّث عليّ ما رمّمته في المدّة الطويلة)). (القفطي، مرجع سابق، ٢٧/٣).

(٢) ينظر مثلا: محمّد الطاهر ابن عاشور، **تفسير التّحرير والتّنوير** (لبنان: مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٠هـ)، ٢١٩/١١.

(٣) كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة: عبد الحليم النجار ورمضان عبد التواب، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧)، ١٤٤/٥.

كتابة المقامة الاختبارية في وقتها عبّر عن ترفعه عن الردّ على العوام، وبعدم اكتفائه بالمقامات العشر واتخاذه قرار التشكيل المعجز في وقت قياسي أعلن تحدّيه الصارخ للخواصّ من البيانيين، ليسلّموا له بالعجز التامّ.

وبعد، فقد كان يمكن لتلك الأزمة، لو لم تستحل إلى "موقف نفسي مؤلم"، أن تنتهي عند هذا الحدّ الذي استردّ الرجل فيه اعتباره، غير أنّ الدلائل تشير إلى أنّه لم يكتف فقط بتعجيز الخواصّ وإفحامهم بل سعى إلى تصفية حسابه معهم، من هنا شرع في تأليف كتاب لا همّ له إلا تصيّد عثراتهم وبيان خطلهم، سمّاه "درة الغواص في أوهام الخواص". وهذا الكتاب فيما يبدو هو المسؤول عن تشكل صورة سلبيّة أخرى له أدخلته في معترك جديد لم يحسب حسابه، هي (**الحريري رجل مقامات**). ولكون مدوّنتنا الحاليّة لا تسعفنا بالمعطيات الكافية، قرّرنا البحث عنها في مظانّ أخرى، الشيء الذي أحوجنا إلى أن نفرد لها ورقة مستقلّة، نرجو أن تظهر قريبًا بعونه تعالى.

الخاتمة:

(نتائج وآفاق)

تقصّت الدراسة صور الحريري ومقاماته في واحدة من أهمّ المدونات التاريخية العربية، متوسّلة المنهج الوصفيّ التحليليّ، وقد اقتضت طبيعتها أن تتفرّع خلاصتها إلى نتائج وآفاق. أمّا النتائج فمنها، ما يلي:

- أنّ ترجمة الحريري عند ياقوت على قدر من الثراء والأهميّة، بحيث يمكن الافتراض بأنّ الدرس النقدي الحديث لم يكن ليعرف "صاحب المقامات" حقّ المعرفة لو كُتِب لترجمته أن تسقط من (معجم الأدباء) لأيّ سبب.
- استبان لنصوص ترجمة الحريري في "المعجم" سياق عامّ يلمّ شتاتها ويوجّهها نحو مصبّ أساسيّ هو إزالة الشكوك التي أثيرت قديمًا حول انتحال الحريري مقامات أحد الأدباء المغمورين، ومن ثمّ، إثبات صورته الخالدة بوصفه "صاحب المقامات".
- كما اتّضح ارتكاز ترجمته على سؤال محوري (سؤال المعارضة) يستفهم عن المقامات: لماذا كان الكتاب الأدبيّ الوحيد الذي لا ترجى معارضته ولا الإتيان بمثله؟ ولهذا استُحضِرت تجربة الحِلّي باعتبارها من أجرأ محاولات المعارضة وأهمّها آنذاك.
- من خلال تجربة الحِلّي، التي طالها الإهمال لأسباب غامضة، برزت عدّة أشكال في تلقّي الكتب والمؤلّفات التراثيّة، بحيث انماز التلقّي "البيانيّ" وارتقى عن نقيضه "العيّوي" بتعدّد مستوياته وتنوّعها، وبما فيه من أضرب تنتج عن طول تدبّر وتأمّل.
- وبهدي من التجربة نفسها، اجتُرِح مفهوم "السجدة البيانية" بوصفه المجسّد لاعتراف الأدباء والبيانيين بتفوّق الحريري وإقرارهم بالعجز عن صناعة مقامات تشبه مقاماته أو تدانيها.
- ثبت للبحث أنّ كتاب المقامات لم يتشكّل خلال مرحلتين متقاربتين زمنيًّا، بل إنها لا تقل عن ثلاث مراحل، كما نصّ على ذلك الحموي وغيره من

الثقات.

- قلّل التحليل من أهميّة الرأيَ الذي يعوّل في تشكّل المقامات الحريرية على مبدأ "الاستزادة" وإشباع رغبات الجمهور الآنيّة، مبرزًا الدور الذي نهضت به تهمة الانتحال في إيصال المقامات الحريرية إلى خمسين مقامة، مفسحًا الطريق لمراجعة النتائج التي أوجدت للمحاكاة والتأثّر دورًا في هذه المسألة.
- دلّ البحث على ثغرات في ترتيب وقائع ظهور مقامات الحريري، منبّهًا على إهمال المدوّنة التاريخيّة حدثًا حاسمًا في هذا الصدد، هو قيام المؤلّف بإعادة تشكيل كتابه من جديد في المدّة الفاصلة بين خروجه من بغداد، إثر انتشار شائعة الانتحال، والعودة إليها.
- ترجّح للبحث أنّ مقولة الانتحال ليست بالضرورة سابقة لواقعة امتناع الحريري عن كتابة "المقامة الاختبارية"، بقدر ما هي تفسير لتلك الواقعة المشهودة.

والمأمول من هذه النتيجة الأخيرة (وهذا ينقلنا إلى الآفاق البحثية) أن نستطيع في ضوء حيثيّاتها التي تؤشّر على علاقة الخواص بأزمة الحريري البحث عن نظرته هو إليهم، وتصوّراته عنهم؛ فعلى الرغم من نجاح مسعاه في إزاحة لقب "منتحل المقامات" عن اسمه إلى الأبد، حتى أنّه لم يعد مستساغًا التشكيك في أمر "صاحب المقامات"، إلا أنّ من المستبعد على مجهوده الذي تجلّى هنا أن يغيّر من قناعات من لا يراه إلّا "رجل مقامات"، ولهذا تطلّب الأمر أن تستقلّ هذه المقولة الأخيرة بدراستها الخاصّة.

ويمكن الإشارة في الختام إلى أفق يبشّر به ما سمّي هنا "التشكيل المعجز"؛ ففضلًا عن كونه يقدّم قراءة – من بين عدّة قراءات محتملة – لواقعة الانقطاع المفاجئ لأزمة الحريري..، يمثّل أحد المقترحات التي يمكن تدقيقها وتوسيع مجالاتها عبر البحث، مثلًا، عن صدى مفهوم "النظم" في التراث السردي.

والله الموفّق للصواب.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

ابن الزبير، محمد. موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب، (مسقط: جامعة السلطان قابوس، ١٩٩٠).

ابن الشعّار، كمال الدين الموصلي. قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، تحقيق: كامل سلمان الجبوري (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥).

ابن خلّكان، أحمد بن محمد. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الفكر، ١٩٧١).

ابن عاشور، محمّد الطاهر. تفسير التّحرير والتّنوير (لبنان: مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٠هـ).

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، تحقيق: خليل شحادة، (بيروت: دار الجيل، ١٣٩٨هـ).

أبو مدين، عبد الفتاح (وآخرون). ندوة النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، مجلة علامات في النقد، منشورات نادي جدة الأدبي، ج٦، ع٢، (١٩٩٢م).

الأندلسي، ابن سعيد. الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٥).

بروكلمان، كارل. تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النجار ورمضان عبد التواب، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧).

البغدادي، الخطيب أحمد بن علي. تاريخ بغداد وذيوله، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ).

الجراخ، عباس هاني. شميم الحلي حياته وشعره (الحلة – بابل: دار الصادق للطباعة والنشر، ٢٠٠٨).

حجازي، محمود فهمي. مقامات الحريري، مجلّة تراث الإنسانية، مج ٧، ع١، يناير – ١٩٦٩م.

الحريري، القاسم بن علي. مقامات الحريري، (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٢٩).

خليل، محمد. المقامة المضيرية: توظيف الأدبي في الاجتماعي والسياسي، مجلة مشارف، ع٢٤، إبريل (٢٠٠٤).

الذهبي، شمس الدين. سير أعلام النبلاء، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤ه).

الربّاع، سامي. بحث في المقامة العربيّة – فيرنر شولتزه، مجلة المعرفة السوريّة، ع٢٨٨، ١ فبراير ١٩٨٦م.

الرومي، ياقوت الحموي. معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م).

الزول، أحمد سليم. مظاهر القصدية الكتابية في مقامات الحريري، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية، مج٢٦، ع١، (٢٠١٨).

الزيّات، حبيب. المحازفة بالأرقام في التاريخ، مجلة المشرق، بيروت، ع ٣، ١ مارس (١٩٣٣).

سابا، عيسى. الحريري ومقاماته، ضمن: الحريري، مقامات الحريري (بيروت: دار الباز، ١٣٩٨ه – ١٩٧٨)

الشريشي، أحمد بن عبد المؤمن. شرح مقامات الحريري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٢).

شيخو، الأب لويس. ديوان حماسة البحتري، مجلة المشرق، ع٢٣، ١ ديسمبر ١٩٠٠، ص١٠٩٥)

الصفدي، صلاح الدين. الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث،٢٠٠٠).

ضيف، شوقي. الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط٣، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠).

علوش، جواد أحمد. شميم الحلي، مجلة العربي الكويتية، ع٥٩، أكتوبر – (١٩٦٣).

الفيروزآبادى، مجد الدين. البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (بيروت: دار سعد الدين، ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م).

القفطي، جمال الدين. إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم

(بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٨٦)
كراتشكوفسكي، أغناطيوس. حماسة البحتري وأوّل باحث لها في أوربا، ترجمة: محمد مرسي، مجلة الرسالة، ع ١٠٢٨، ٢٦ سبتمبر ١٩٦٣.
المطيري، إقبال. الشعر في مقامات الحريري، (الكويت: مكتبة آفاق، ٢٠١٤).
مقامات أبي زيد السروجي، تحقيق: مايكل كوبرسون، تقديم: عبد الفتاح كليطو، منشورات جامعة نيويورك، (أبو ظبي: المكتبة العربية، ٢٠٢٠).
اليعقوبي، خليفة حارب. صورة المجتمع العباسي من خلال مقامات الحريري، رسالة ماجستير، إشراف: سمير الدروبي، جامعة مؤتة، ٢٠٠٨.

Bibliography

The Noble Quran.

Abu Madyan, ʿAbd al-Fattāh (and others). *Seminar of literary criticism and humanities,* Alamat Fi Al-Naqd magazine, publications of Jeddah literary club, vol 6, second issue, (1992).

Al-Andalussi, Ibn Saʿeed. Al-Ghusoon Al-Yāniʿa Fi Mahāsin Shuʿarā Al-Māh Al-Sabiah, investigated by: Ibrahim Al-Abyarī. (Cairo: Al-Maʿārif, 1945).

Al-Baghdādī, Al-Khatib Ahmad Ibn Ali. Tārikh Baghdād, study and investigated by: Mustafa ʿAbd al-Qādir ʿAtā, (Beirut, Al-Kutub Al-Ilmiyah, 1417AH).

Al-Dahabī, Shams al-Dīn. Siyarr Aʿlām Al-Nubalā, 2nd edition, (Beirut: Al-Risalah foundation, 1404).

Al-Fairuzabādī, Majd Al-Dīn. Al-Balāgha Fi Tarājim Aʾimmat Al-Nahw Wa Al-Lugha, (Beirut: Sād Al-Dine house, 1421, 2000).

Al-Harīrī, Al-Qāsim Ibn Ali. Maqāmāt Al-Harīrī, (Cairo: Al-Hussein printing house, 1929).

Al-Jarrākh, ʿAbbās Hāni. Shamim Al-Hilli: Hayatuhū Wa Shiruhū, (Al-Hilla, Babylon, Al-Sadiq house for printing and publishing, 2008).

Allouch, Jawad Ahmad. Shamim Al-Hilli, Al-Arabi Kuwaiti magazine, issue 59, October, (1963).

Al-Mutairī, Iqbāl. Al-Shiyar Fi Maqāmāt Al-Harīrī, (Kuwait: Afaq library, 2014).

Al-Qafatī, Jamāl Al-Dīn. Inbāh Al-Ruwāt ʿAlā Anbāʾ Al-Nuhāt, investigated by: Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, (Beirut, Al-Fikr Al-Arabi house, 1986).

Al-Roumī, Yaqout Al-Hamawī. Muʿjam Al-Oudabā: Irshad Al-Arīb Ilā Maʿrifat Al-Adīb, investigated by: Ihsān ʿAbbās, (Beirut, Al-Gharb Al-Islami, 1993).

Al-Safadī Salāh Al-Dīn. Al-Wāfī Be al-Wafayāt, investigated by: Ahmad Al-Arnaʾūt and Turki Mustafa, (Beirut, Ihyā Al-Turāth house, 2000).

Al-Sharīshī, Ahmad Ibn ʿAbd al-Muʾmin. Sharh Maqāmāt Al-Harīrī, investigated by: Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, (Sidon – Beirut: the Modern Library, 1992).

Al-Yāqūbī, Khalīfa Hārib. Sūrat Al-Mujtamaʿ Al-ʿAbbāsī Min Khilāl Maqāmāt Al-Harīrī: a master thesis, supervision: Samir Al-Darubi, Muʾta University, 2008.

Al-Zayyāt, Habīb. Al-Mujāzafah Be al-Arqām Fi Al-Tārīkh, Al-Mashriq magazine, Beirut, third issue, March the first, (1933).

Al-Zool, Ahmad Sālim. Mazāhir Al-Qasdiyah Al-Kitabiyah Fi Maqāmāt Al-Harīrī, Journal of the Islamic university for human studies, vol 26, first issue, (2018).

Brockelmann, Carl. The History of Arabic Literature, translated to Arabic by Abd al-Halim Al-Nadjar and Ramadan Abd al-Tawwāb, fifth edition, (Cairo, Al-Mārif, 1977).

Dhaif, Shawqi. Al-Fann Wa Madhāhibuhū Fi Al-Turāth Al-ʿArabi, 3rd edition, (Cairo: Al-Mārif, 1960).

Hijāzī, Mahmoud Fahmī. Maqāmāt Al-Harīrī, Turāth Al-Insaniyah magazine, vol 7 first issue, January – 1969.

Ibn Al-Shaʿār, Kamāl al-Dīn Al-Mawsilī. Qalāʾid Al-Jumān Fi Farāʾid Shuʿarā Hādha Al-Zamān, investigated by: Kāmil Salman Al-Jabbouri, (Beirut: Al-Kutub Al-Ilmiyah, 2005).

Ibn Al-Zubair, Muhammad. Sultān Qaboos' encyclopedia of the Arab names, (Muscat, Sultan Qaboos University, 1990).

Ibn ʿĀshūr, Muhammad Al-Tāhir. Tafsir Al-Tahrir Wa Al-Tanwir, (Lebanon, Al-Tarikh Al-Arabi foundation, 1420).

Ibn Katheer, Ismāʿeel Ibn Omar. Al-Bidāyah Wa Al-Nihāya, investigated by: Khalīl Shahādah, (Beirut, Al-Jeel house, 1398).

Ibn Khiliqān, Ahmad Ibn Muhammad. Wafayāt Al-Aʿyān Wa Anbā Abnā Al-Zamān, investigated by: Ihsān ʿAbbās, (Beirut, Al-Fikr, 1971).

Khalīl, Muhammad. Al-Maqāmah Al-Muḍairiyah: Tawzeef Al-Adabī Fi Al-Ijtimāʿī Wa al-Siyāsī, Masharif magazine, Issue 24, April (2004).

Krachkovsky, Ignatii. Hamasat Al-Buhturī, the first researcher about it in Europe, translated to Arabic by Muhammad Mursi, Al-Risalah magazine, issue 1028, September 26th 1963.

Maqamat Abu Zaid Al-Saroujī, investigated by: Michael Cooperson, introduced by ʿAbd al-Fattah Kilito, publications of New York University, (Abu Dhabi, the Arab Library, 2020).

Saba, Eissa. Al-Harīrī Wa Maqāmātuhū, in: Al-Harīrī, Maqāmāt Al-Harīrī, (Beirut, Al-Bāz house, 1398, 1978).

Shikho, al-Abb Luis. Dīwān Hamāsat Al-Buhturī, Al-Mashriq magazine, issue 23, December the first, 1900.

١٣٨١
١٩٦١

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

ISLAMIC UNIVERSITY OF MADINAH

Journal of

Arabic Language and Literature

Vol : 11 | Part : 1 | Issue : 4 | May - Aug 2021